كليــة اللغة العربية بأسيوط

المجلـة العلميـة

مقامــات (فـــي شــك مــريـــب)
فـــي النظـم القـرآنـــي

إعداد

د. فهــد بن محمــد بن فهــد العمــار

أستــاذ البــلاغـــة والنقــد المشــارك

كــلية اللغة العربية بالرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المملكـــة العربيـــة السعـوديـــة.

(العــــدد الأربـــعـــون)

(إصــدار أكــتــوبــر ـ الـجـزء الثالث)

(١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م)

مقامات (في شك مريب) في النظم القرآني

فهد بن محمد بن فهد العمار
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، كلية اللغة العربية بالرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني: fahd10812@gmail.com

الملخص :

جاء البحث في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، ذكرت في المقدمة أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وبينت فيها أهداف الدراسة، وخطة البحث ومنهجه، وتحدثت في التمهيد عن المقام، فذكرت تعريفه، وبينت أهميته في الدرس البلاغي، ثم عرفت كلًّا من الشك والريب؛ فهما مجال الدراسة، ثم ذكرت بعد ذلك شواهد الدراسة بعد حصرها وتصنيفها حسب مقاماتها. وأما المبحثان فكان المبحث الأول بعنوان: مقام تكذيب الأمم السابقة لأنبيائها، والمبحث الثاني بعنوان: مقام تكذيب كفار قريش للرسول -عليه الصلاة والسلام-، وقد ذكرت في كل مبحث المواضع الخاصة بكل مقام، وبينت فيه بلاغة تركيب (في شك مريب)، وذكرت أسرارها البلاغية، وربطت فيه بلاغة هذا التركيب بالمقام الذي جاء فيه، والدوافع التي آلت بهم أن يكون في شك مريب، وعواقب هذا الموقف عليهم في الدنيا والآخرة. ثم خاتمة البحث ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، وبعض التوصيات العلمية، ثم ذيلت ذلك بذكر ثبت لمصادر البحث ومراجعه.

الكلمات المفتاحية: البلاغة القرآنية، المقام ، الشك، الريب، تراكيب النظم.

Assemblies of (they have been in grave doubt) in the Quranic Script

Fahd bin Mohammed Al-Ammar

Department of Rhetoric, Criticism and the Curriculum of Islamic Literature, College of Arabic Language in Riyadh, Imam Muhammad Ibn Saud Islamic University, Kingdom of Saudi Arabia.

Email*: fahd10812@gmail.com*

Abstract

The research consists of an introduction, a preface, and two chapters. In the introduction, I mentioned the importance of the topic, the reasons for selection, the objectives of the study, the research plan, and the methodology. In the preface, I discussed the Assembly, its definition, and explained its importance in the rhetorical field. Then I clarified the difference between doubt and suspicion which are the field of study. Then I mentioned the evidence of the study after classification according to its assemblies. As for the two chapters, the first chapter was entitled: The Assembly of the Previous Nations' Denial of its Prophets, and the second chapter was entitled: The Assembly of the Disbelievers of Quraysh's Denial of the Prophet -peace be upon him. In each topic, I mentioned the verses of each Assembly, explained the eloquence of the (they have been in grave doubt) structure), mentioned its figures of speech. I also linked the eloquence of this structure to the verses in which it came, the motives that led them to be "in grave doubt, and the consequences of this position on them in this world and the hereafter. In the conclusion of the research, I mentioned the most important results, some scientific recommendations, and then the research sources and references were appended.

Keywords: *Quranic rhetoric, Standing, Doubt, Uncertainty, Systems structures.*

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين، الذي أنزل القرآن فكان آية في الإعجاز، وغاية في الفصاحة والبيان، أنزله على هذه الأمة فكان معجزة خالدة، فهدى به نفوسًا أقبلت عليه، وأقام الحجة على من أعرض عنه وكفر، فكان معجزة خالدة إلى أن تقوم الساعة، رغب بقراءته، وحث على تأمله وتدبره، فكان في ذلك أجر عظيم، وعلم غزير، والصلاة والسلام على خيرة البرية والأنام نبينا محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم– وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فلا تخفى أهمية المقام في الدرس البلاغي، فقد قامت البلاغة على أساسه، فكان من البلاغة في الصميم، بل هو البلاغة، فلن تكون هناك بلاغة إلا من خلال النظر إلى المقام الذي ورد فيه النص، ولا تحسن الأساليب البلاغية إلا إذا جاءت وفق مقامها، فقد ارتبطت البلاغة بالمقام، وعُرِّفتْ به، فهي ((مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته))[1]، وما مقتضى الحال إلا المقام الذي يجب مراعاته، فيأتي الكلام مطابقًا له، فكان هو ميزان البلاغة، وما البلاغة لولا مقاماتها؟! ومن هنا عني علماء البلاغة بالمقام: تعريفًا وبيانًا، وقد جاء هذا البحث امتدادًا لهذا الاهتمام، وبيانًا لإبراز مكانة المقام في الدرس البلاغي، وعليه جاء اختياري لموضوع (مقامات "في شك مريب" في النظم القرآني).

ولن يكون حديثي عن المقام وبلاغته عامًّا وعلى الإطلاق، بل سيكون محصورًا في موضوع هذه الدراسة، وهذا وجه من وجوه تميز هذه الدراسة، فهي دراسة تطبيقية تنظر في مقامات (في شك مريب) في القرآن الكريم، وتقف مع أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية، بعد حصر تلك المقامات، وبيان ما تضمنته من أسرار ودقائق ما كانت لتكون لو خلا منها نظم القرآن الكريم.

---

(١) الإيضاح: ١٩.

أهمية الموضوع وأسباب الاختيار:

ثمة أسباب علمية دعتني إلى اختيار هذا العنوان: (مقامات "في شك مريب" في النظم القرآني)، والكتابة فيه، ومن أهمها ما يأتي:

أولًا: لأهمية المقام في الدرس البلاغي، فقد ارتبطت البلاغة به تعريفًا وتطبيقًا، فكانت البلاغة مرهونة بمراعاته، والمجيء وفق مقتضياته.

ثانيًا: تتجلى أهمية هذا البحث في كونه دراسة تطبيقية من خلال النظر في مقامات: (في شك مريب) في القرآن الكريم، وتعد هذا الدراسة التطبيقية خير توظيف لجهود علمائنا في حديثهم عن المقام، وبيان منزلته في الدرس البلاغي.

ثالثًا: تنوع المقامات التي وردت فيها (في شك مريب)، فقد وردت في ستة مواضع من القرآن الكريم، في مواضع متعددة، ومقامات مختلفة.

رابعًا: تعدد الموضوعات التي جاءت فيها (في شك مريب)، وتنوع من صدر منهم ذلك، فقد جاءت في مقامات متعددة على امتداد نزول القرآن، في العهد المكي، فكان في هذا التعدد كثير من الخصائص الموضوعية والأسلوبية، وهذا ما يبين أهمية مقاماتها التي وردت فيها.

أهداف الدراسة:

تتجلى الأهداف التي أسعى إلى تحقيقها فيما يأتي:

أولًا: تعريف المقام، وبيان المراد به في الدرس البلاغي، وبيان عناية العلماء به.

ثانيًا: حصر مواضع الدراسة، وحصر مقامات كل موضع، وبيان المكي منها والمدني، ومعرفة ما يتميز به كل مقام عن الآخر في خصائصه الموضوعية والأسلوبية.

ثالثًا: معرفة الفروقات الدقيقة بين دلالة كل من لفظتي: الشك والريب، مما يقطع

بعدم ترادفهما.

رابعًا: الكشف عن دوافع المشركين، وبيان سبب وقوعهم في الشك والريب من الرسول ﷺ، ومن القرآن الكريم.

منهج الدراسة:

ستقوم الدراسة على المنهج الوصفي، القائم على الاستقراء والتحليل، الاستقراء لمقامات (في شك مريب) بعد حصرها وتصنيفها، وتحليل الآيات المتضمنة (في شك مريب) تحليلًا بلاغيًّا؛ لمعرفة ما تضمنته من أساليب بلاغية، ونكت بيانية.

خطة البحث:

جاء البحث في مقدمة وتمهيد ومبحثين، ثم خاتمة البحث وثبت لمصادر البحث.

ذكرتُ في المقدمة أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وبينت فيها أهداف الدراسة، وخطة البحث ومنهجه.

التمهيد: ويشمل:

أولًا: المقام: تعريفه وأهميته في الدرس البلاغي.

ثانيًا: تعريف الشك والريب.

ثالثًا: شواهد الدراسة: إحصاء وتصنيفًا.

وقد جاء المبحث الأول بعنوان: مقام تكذيب الأمم السابقة لأنبيائها.

والمبحث الثاني بعنوان: مقام تكذيب كفار قريش للرسول -عليه الصلاة والسلام- ولما جاء به.

ثم الخاتمة، ذكرت فيها نتائج البحث التي توصلت إليها، وبعض التوصيات العلمية.

وبعد فهذه هي أهداف البحث وغاياته التي أسعى إلى تحقيقها وبيانها – بإذن الله– فإنْ تحقق ذلك فهو توفيق من الله وفضل، فهو صاحب الفضل والجود، والله أسأل أن يأخذ بيدي، ويفتح علي، ويهديني إلى الحق والصواب، فهو نعم المولى ونعم المسؤول، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

التمهيد ويشمل:

أولًا: المقام: تعريفه وأهميته في الدرس البلاغي.

ثانياً: تعريف الشك والريب.

ثالثاً: شواهد الدراسة: إحصاء وتصنيفًا.

أولًا: المقام: تعريفه وأهميته في الدرس البلاغي

تدل لفظة (المقام) في المعجمات اللغوية على موضع الشيء ومكانه، فالمُقَام والمُقَامة: الموضع الذي يُقام فيه، والجمع مقامات، وسواء قلنا المُقام أو المَقام فهي بمعنى الإقامة، وتأتي بمعنى المجلس الذي يجتمع فيه القوم، ومنه قوله تعالى :﴿ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴿١٣﴾﴾ [الأَحْزَاب الآية ١٣]؛ أي: لا موضع لكم.(١)

وأما في الاصطلاح فالمقام هو: ((مراعاة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته)) (٢)، وهو المراد بقولهم: لكل مقام مقال، وهي مقولة مشهورة وخالدة في تراثنا العربي، فقد وردت فيه شعرًا ونثرًا، فذهبت مثلًا، فقد وردت في (مجمع الأمثال) وذكر أنها من أمثال العرب، ومرادهم بذلك: ((أن لكل أمر أو فعل أو كلام موضعًا لا يُوضع في غيره)). (٣)

كما جاءت في شعر الحطيئة في قوله لعمر بن الخطاب – رضي الله عنه –:

تحنن عليَّ هداك المليك فإن لكل مقام مقالا (٤):

وللمقام بمعناه الاصطلاحي حضوره في الدرس البلاغي قديمًا وحديثًا، وللجاحظ في ذلك مقولات وإشارات متقدمة ومهمة يؤكد فيها أهمية المقام، وعلاقته بالبلاغة، فقد تحدث في كتابه (الحيوان) عن أهمية المقام، والعمل على مقتضاه، وقد خصص لذلك جزءًا في كتابه باسم (لكل مقام مقال)، وبيّن أن من

(١) انظر: لسان العرب: مادة: قوم.

(٢) الإيضاح: ١٩.

(٣) مجمع الأمثال: ١٢٦/٣.

(٤) انظر: ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت: ٢٢٢ .

أراد الإجادة في الكلام والإصابة فيه فعليه بمراعاة المقام، وذلك في قوله: ((وقد أصاب كل الصواب الذي قال: لكل مقام مقال)).[١]

ولأبي هلال العسكري كلام بليغ في بيان أهمية المقام، ومعرفة المقامات ومراعاتها، فقد ذكر مراد البلاغيين بقولهم: ((ألَّا يُكلَّم سيد الأَمَة بكلام الأَمَة، ولا الملوك بكلام السوقة)) [٢]، فبين أن الخلط في ((ذلك جهل بالمقامات، وما يصلحُ في كلٍّ واحدٍ منهما من الكلام، وأَحْسَنَ الذي قال: لكل مقام مقال)).[٣]

وكذلك فعل السكاكي، فقد أولى المقام عناية فائقة تليق به، بيّن فيه أهميته، ووجوب مراعاته، فقد خصص له جزءًا في كتابه وتناوله تحت عنوان: (لكل مقام مقال) يقول فيه: ((ولا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل ... وجميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقام غير مقتضى الآخر)).[٤]

وقد بلغت حفاوة الخطيب القزويني بالمقام ووجوب مراعاته، أن ربط البلاغة بذلك، بل جعله جزءًا من تعريفها، فقد عرّف البلاغة بقوله: ((مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته))[٥]، معلـلًا تلك الحفاوة، وهذه الأهمية بقوله: ((إن بلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، ومقتضى الحال مختلف؛

(١) انظر: كتاب الحيوان: ٤٣/٣.
(٢) كتاب الحيوان: ٩٢/١.
(٣) الصناعتين: ٣٣.
(٤) مفتاح العلوم: ١٦٨.
(٥) الإيضاح: ١٩.

فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ... وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي)).[١]

ويزيد الخطيب القزويني في الحفاوة به حين يربط بينه وبين النظم الذي عُني به عبد القاهر، واهتم به في كتابه: (دلائل الإعجاز) حيث يقول: ((فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب، وهذا أعني تطبيق الكلام على مقتضى الحال، هو الذي يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم)).[٢]

وكذلك من جاء بعد الخطيب القزويني من العلماء فقد ذكروا المقام وأشادوا به، مبينين أهميته، لافتين النظر إلى تعدد المقامات، وأن على المتكلم مراعاتها، وأن يأتي بالكلام وفق مقتضياتها، يدل على ذلك قول سعد الدين التفتازاني: ((فعند تفاوت المقامات؛ تختلف مقتضيات الحال ضرورة، فإن الذكي يناسبه من الاعتبارات اللطيفة، والمعاني الدقيقة الخفية ما لا يناسب الغبي)).[٣]

هذه إشارات بعض العلماء المتقدمين على أهمية المقام في الدرس البلاغي، وإشادتهم به، وليس الغرض من ذلك حصر مقولاتهم، وبيان جهودهم، فذلك يطول، وليس هو المراد من هذا البحث، وإنما ذكرته هنا في التمهيد؛ ليكون توطئة لهذه الدراسة التي تعنى بمقامات (في شك مريب) في القرآن الكريم؛ ليكون القارئ على بينة من أهمية المقام، من خلال ذكر تعريفه، وبيان حفاوة العلماء به، وستعنى هذه الدراسة بالجانب التطبيقي في إبراز أهمية المقام، وتأكيد أثره في دراسة الأساليب البلاغية التي تأتي وفق مقتضاه، ومراعاة له.

---

(١) الإيضاح: ١٩.

(٢) الإيضاح: ١٩.

(٣) كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح: ٢٦.

ثانياً: تعريف الشك والريب:

من الأهمية بمكان في هذا البحث قبل النظر في مقامات (في شك مريب) التعريف بكل من الشك والريب؛ ليكون القارئ على بينة من معناهما، ودلالة كل لفظة منهما؛ ولتتحقق الغاية من دراسة مقامات (في شك مريب)، فلن تؤتي دراسة هذه المقامات ثمارها إلا إذا كان المتلقي عارفًا لمعنى كل واحدة من هاتين اللفظتين: الشك والريب.

فالشك مأخوذ من التداخل، كما يذكر ذلك ابن فارس، ثم يبين ذلك بقوله: ((إنما سُمي بذلك؛ لأن الشاك كأنه شُك له الأمران في مَشَكٍّ واحد، وهو لا يتيقن واحدًا منهما))[1]، فأُخذ منه الشك الذي هو خلاف اليقين، وفيه معنى التردد، وعدم الثبات على أمر من الأمور؛ ولذا عُرف بأنه: اعتدال النقيضين وتساويهما[2]؛ ولذا فالشك يوقع صاحبه في الحيرة والاضطراب؛ لعدم تباين الأمور، وتمايز بعضها عن بعض، واختلاطها فيما بينها، فلم يتيقن بأحدهما، ولم يترجح له أحد الأمرين على الآخر.

أما الريب فهو يختلف عن الشك، فهو يتجاوز الاشتباه في الأمور، ولا يدل على تساوي الأشياء، وليس فيه دلالة على الاضطراب والحيرة، بل هو زيادة على ذلك، فلدى صاحبه موقف ممن يرتاب فيه؛ ولذا فدافعه غالبًا التهمة وسوء الظن.[3]

---

(١) مادة: شك: معجم مقاييس اللغة.

(٢) مادة: شك: مفردات ألفاظ القرآن.

(٣) انظر: مادة: ريب، معجم مقاييس اللغة، والقاموس المحيط.

يدل على ذلك قول أبي هلال العسكري، فقد ذكر أن الارتياب شك مع تهمة، ودلَّل على هذا الأمر قائلًا: ((إنك تقول: إني شاك اليوم في المطر، ولا يجوز إني مرتاب بفلان إلَّا إذا شككتَ في أمره، واتهمته)).[1]

إذن فثمة فروقات بين هاتين اللفظتين، وهذا يدل على انفراد كل لفظة بمعنى خاص بها، يدل على ذلك المعنى اللغوي لكل واحدة منهما، فهما مختلفتان مادة ودلالة، يدل على اختلاف هاتين اللفظتين في دلالاتهما ومعناها ورودهما في القرآن الكريم في مقامين مختلفين، وسياقين متغايرين، بناء على المعنى الخاص بكل لفظة منهما، وبالغرض المراد تحقيقه من هاتين اللفظتين.

فتأتي لفظة الشك في المقامات التي يكون فيها اعتدال النقيضين، أو في المواقف التي لا يبطن فيها صاحبها السوء، فهو مجرد شاك فيما يعرض له، أو فيما يسمع ويرى، وليس لديه موقف ضده، بخلاف لفظة الريب فهي تأتي في مقام الخلاف، وفي مقام الريبة والاتهام؛ ولذا تأتي في بيان موقف المشركين من القرآن الكريم، أو من الرسول -عليه الصلاة والسلام-، فقد تجاوزوا الشك في أمرهما إلى الارتياب في حقيقتهما؛ ولذا اتهموا القرآن بالسحر والشعر وأنه أساطير الأولين، كما اتهموا الرسول -صلى الله عليه وسلم- بأنه ساحر وشاعر وكاذب؛ ولذا تأتي لفظة الريب في معرض الحديث عن موقفهم، وبيان حقيقة أمرهم.

يؤكد هذه الحقيقة ويقررها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البَقَرَة الآية ٢] فقد تجاوز المشركون الشك في القرآن الكريم، إلى الارتياب فيه والتهمة؛ ولذا اتهموه بأنه افتراه من تلقاء نفسه، وأن الذي جاء به شعر وسحر؛ ولذا جاءت لفظة لا ريب فيه دالة على هذه المعاني التي يريدها القوم، فجاء نفيه عن القرآن، مبينًا أن الريب فيهم وليس فيه.

---

(١) الفروق: ٨٠.

وقد جاءت لفظة الريب وصفًا للفظة الشك في مواضع متعددة في النظم القرآني؛ وفي هذا دلالة على مفارقة كل لفظة للأخرى في الدلالة، وفي المقام الذي تأتي فيه، وفي الغرض المراد تحقيقه وتقريره، وذلك أن الشيء لا يوصف بنفسه، ولا يعطف على معناه نفسه.(١)

وفي اجتماع هاتين اللفظتين كثير من الأسرار البلاغية، والنكت البيانية؛ بناء على دلالة كل لفظة على حدة، فإذا تضافرت مع اللفظة الأخرى سيكون المعنى مغايرًا، والدلالة مضاعفة، ومن هنا جاء هذا البحث للنظر في المقامات التي ورد فيها تركيب (في شك مريب) في النظم القرآني، ولا يخفى أهمية المقام في الدرس البلاغي، ومن المهم أن ننطلق في بيان أهمية المقام من خلال التطبيق من خلال النظر في بلاغة هذه الآيات، وبيان ما تضمنته من أسرار وغايات.

ثالثًا: شواهد الدراسة: إحصاءً وتصنيفًا:

ورد تركيب (في شك مريب) في النظم القرآني في ستة مواضع، ومن المهم قبل البدء في النظر في مقامات تلك المواضع وبيان دلالاتها وأسرارها البلاغية حصرها؛ ولذا آثرتُ ذكرها هنا في التمهيد؛ ليكون القارئ على بينة منها قبل الشروع في مباحث هذا البحث.

وهذه هي مواضعها مرتبة على حسب ورودها في المصحف الشريف:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿* وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ

(١) انظر: الإعجاز البياني للقرآن: ٥٨٤.

هَٰذَآ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾ هود: ٦١ – ٦٣.

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ١٠٩ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١١٠ وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١١ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾ هود: ١٠٨ – ١١٢.

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩ * قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠﴾ إبراهيم: ٩ – ١٠.

الموضع الرابع: قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٥١ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٥٢ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ

مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾
سبأ: ٥١ ــ ٥٤.

الموضع الخامس: قول الله تعالى:﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُۥٓ ءَاَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ فصلت: ٤٤ ــ ٤٥.

الموضع السادس: قول الله تعالى:﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾ الشورى: ١٣– ١٤.

وبعد النظر في هذه المواضع وتأملها وجدتُ أنها تعود إلى مقامين اثنين:

المقام الأول: مقام تكذيب الأمم السابقة لأنبيائها.

المقام الثاني: مقام تكذيب كفار قريش للرسول –عليه الصلاة والسلام.

وسأفرد كل مقام من هذين المقامين بمبحث خاص به؛ للنظر في دلالة كل مقام، وبيان أسراره البلاغية، ومعرفة الغايات التي جاء لتحقيقها وتقريرها.

المبحث الأول:

مقام تكذيب الأمم السابقة لأنبيائها

سأذكر في هذا المبحث المواضع المتعلقة بهذا المقام، بناء على ترتيبها في المصحف؛ للنظر في بلاغة هذا التركيب (في شك مريب) من خلال المقام الذي جاء فيه، والغرض المراد تحقيقه.

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿ * وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾ هود: ٦١ – ٦٣.

يذكر الله – سبحانه وتعالى– في هذه الآيات قصة نبي الله صالح –عليه الصلاة والسلام– مع قومه في دعوته لهم إلى الله، ونهيه لهم عن عبادة الأوثان والأصنام مبينًا أنه وحده من يستحق العبادة دون سواه، فهو من استعمرهم في الأرض، واستخلفهم فيها؛ ولذا دعاهم إلى عبادته، والتوبة والإنابة إليه، فهو قريب منهم، مجيب لدعائهم.

فما كان منهم إلا أن قابلوا دعوته ودعاءه لهم بقولهم: ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾

ومعنى قولهم: ﴿ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ﴾: أي ((كنت تلوح فيك مخايل الخير، وأمارات الرشد فكنا نرجوك؛ لننتفع بك، وتكون مشاورًا في الأمور مسترشدًا في التدابير، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك، وعلمنا أن لا خير فيك)).[1]

وفي مناداتهم له باسمه (يَٰصَٰلِحُ) دلالة على عدم اعترافهم بنبوته، وبعدم تميزه عليهم، فهو من عدادهم وواحد منهم، ويعد هذا منهم قلة أدب مع مقام النبوة، وجفاء منهم وغلظة في التعامل معه وفي مناداته.[2]

وفي قولهم: مرجوًّا قبل هذا ((شهادة منهم لنبيهم صالح أنه ما زال معروفًا بمكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه، ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر؛ الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة، قالوا هذه المقالة؛ التي مضمونها أنك قد كنت كاملًا، والآن أخلفت ظننا فيك، وصرت بحالة لا يرجى منك خير)).[3]

وفي حديثهم عن دعوته لهم باسم الإشارة (هَٰذَآ) دلالة على الاحتقار والازدراء له، فقد أشاروا إلى قولهم وعملهم معهم إشارة انتقاص واحتقار، فقد اختصروا دعوته، وكل أقواله وأفعاله بهذه الإشارة، وقد ضمنوها الاحتقار والازدراء من مقامه وقدره.

ثم أتبعوا ذلك بقولهم:﴿ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ والاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ والتعجب[4]، فقد أنكروا عليه أن ينهاهم عما كان يعبد آباؤهم، وتعجبوا من ذلك تعجبًا شديدًا، فقد جاء الاستفهام ليدل على هذه المعاني كلها،

(١) الكشاف: ٤٠٧/٢.
(٢) انظر: نظم الدرر: ٩: ٣١٩.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٣٤٨/١.
(٤) انظر: فتح القدير: ٢/ ٢٧٥، والتحرير والتنوير: ١١٠/١٢.

فليس الخطأ -في زعمهم- أن يعبدوا أصنامًا آلهة، ولكن الخطأ كل الخطأ، والعجب كل العجب أن ينهاهم نبيهم عن عبادتها، فهذا من أعظم ما افتراه، ومن أكبر القدح فيه؛ ولذا فقد انقطع رجاؤهم منه، بعدما كانوا يؤملون منه النفع والرشد.(١)

وقد جاء الحديث عن أصنامهم بطريق الموصول في قوله: ﴿مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ وقد تضافر الموصول هنا مع الاستفهام في قوله: (أتنهانا) بما توافر في كل واحد منهما في إظهار معنى التعجب والإنكار من دعوة صالح لهم لترك عبادة الأصنام؛ ((لما في الصلة من الدلالة على استحقاق تلك الأصنام أن يعبدوها في زعمهم اقتداء بآبائهم؛ لأنهم أسوة لهم، وذلك مما يزيد الإنكار اتجاهًا في اعتقادهم)) (٢)؛ ولذا ففي هذا الإنكار وعيد له وتهديد، فكأنهم يتوعدونه من خلال هذا الاستفهام، فسينال جزاء دعوته، وسيطوله ضررهم وأذاهم بأن دعاهم إلى ترك ما كان يعبده آباؤهم.(٣)

ثم أتبعوا إنكارهم لصالح -عليه السلام- بقولهم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ وقد تضمن قولهم هذا بيان سبب ردهم لدعوة صالح لهم، فلم يكن السبب الوحيد تمسكهم بعبادة آبائهم الأولين، فثمة سبب متعلق بهم، وراجع لهم بسبب ما في قلوبهم من دعوته، فلهم موقف منه ومما يدعوهم إليه، وهو الشك والريب في دعوته فيما ينهاهم عنه، ويدعوهم إليه، والمعنى: ((وإننا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب؛ أي: وإنا لواقعون في شك مما تدعونا إليه من عبادة

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٣٤٨/١.
(٢) التحرير والتنوير: ١٢/ ١١.
(٣) انظر: البحر المحيط: ١٧٦/٦.

الله وحده لا نتوسل إليه بأحد من أوليائه وأحبائه الشفعاء لنا عنده المقربين لنا إليه ... لا ندري مرادك وغرضك منه؛ فإنه موجب للريب وسوء الظن)).[1]

وقد جاء قولهم: ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ معبرًا كل التعبير عن الشك المريب الذي يملأ قلوبهم، بما تضمنته من أساليب بلاغية، تم توظيفها خير توظيف في بيان موقفهم من دعوة صالح -عليه الصلاة والسلام-، يتجلى ذلك من تأكيد شكهم المريب بإن، واللام، وفي تصدير الخبر بهذه المؤكدات تأكيد له وتقرير، وذلك مكر منهم ودهاء؛ إشارة إلى أن ((شكهم حقيق بأن ينكر؛ لأنه في أمر واضح جدًّا لا يحتمل الشك أصلًا، (وإننا لفي شك)، وزادوا التأكيد بالنون واللام)) .[2]

وفي تنكير لفظتي: شك ومريب: تعظيم لهما وتفخيم[3]، وكيف لا يكون عظيمًا وبه وبسببه ردوا دعوة نبي الله صالح -عليه الصلاة والسلام-، وبه وبسببه تمسكوا بما كان عليه آباؤهم من الكفر والضلال، ومن عظمه أن كان شكهم مريبًا؛ ولذا فقد تلبسوا بهذا الشك المريب وانغمسوا به، يدل على ذلك حرف الجر (في) بدلالته على الظرفية، ففيه دلالة على أن هذا الشك المريب قد أحاط بهم من جميع جوانبهم، إحاطة الظرف بمظروفه، فأنى لهم وهذه حالتهم أن يروا الحق، ويسلكوا درب الهداية والإيمان؟!

ولو كان موقفهم من صالح ودعوته هو الشك وحده لهان الأمر وما هو بهين؛ إذ إن الشك ((هو أن يبقى الإنسان متوقفًا بين النفي والإثبات)) [4]، فقد

(١) انظر: تفسير المنار: ١٠٢/١٢.
(٢) نظم الدرر: ٣٢٠/٩.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم: ٢٢١/٤.
(٤) مفاتيح الغيب: ٣٦٨/١٨.

يزول الشك لأي سبب من الأسباب، ورب شك قد صار إيمانًا ويقينًا! ولكنهم انتقلوا من الشك إلى الريب، دل على ذلك وصف الشك بالريب هنا في قولهم: (مريب)، دلالة أنهم تجاوزوا مرحلة الشك إلى ما هو أشد منها وأخطر، فلم يكونوا مترددين في أمر نبيهم صالح -عليه الصلاة والسلام-، وفيما يدعوهم إليه، ولم يكونوا محتارين متوقفين بين النفي والإثبات، بل صار منهم الكفر والتكذيب والجحود والنكران له، ولما يدعوهم إليه، ومريب: اسم فاعل، وقد يكون الفعل لازمًا، والمعنى: أراب الرجل، وذلك إذا كان ذا ريبة من أمره، وكان ذلك شأنه، وقد يكون متعديًا، أرابه؛ أي أوقعه في الريبة[1]، ولا تعارض بين المعنيين، فقد يكون المرء ذا ريبة، وقد يوقع غيره في الريبة، ومرادهم بالريبة: قلق النفس واضطرابها؛ وانتفاء الطمأنينة وسكونها؛ لخلوها من الإيمان واليقين[2]، وفي وصف شكهم بالمريب خبث منهم ودهاء، إشارة منهم إلى أنهم تجاوزوا مرحلة التردد وعدم اليقين، فلم يكونوا شاكين في أمره وفي أمر دعوته، بل صاروا جازمين متيقنين من حقيقته ومن حقيقة ما يدعوهم إليه، فهو طعن في الداعي وفي دعوته، ففي لفظة مريب دلالة على سوء الظن، وشدة الاتهام، فقد ﴿ ترجح في اعتقادهم فساد قوله، وهذا مبالغة في تزييف كلامه﴾ [3]، ففي هذا الوصف تأكيد وتقرير وتقوية؛ دلالة على بقائهم على الكفر، وإعراضهم عن قبول الحق، ورد دعوته، ولا فرق بينهم وهذه حالتهم ﴿ وبين حالة التصميم على الكفر، ومريب معناه: ملبس متهم﴾[4].

(١) انظر: البحر المحيط: ١٧٦/٦، وفتح القدير: ٢٧٦/٢.

(٢) انظر: نظم الدرر: ٣٢٠/٩.

(٣) مفاتيح الغيب: ٣٦٨/١٨.

(٤) المحرر الوجيز: ١٨٤/٣.

وقد جاء قوله: ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ ردًا على قولهم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ وقد جاء هذا التركيب بما تضمنته من أساليب بلاغية ليبين تهافت موقفهم، وليقتلع جذور الشك والريب من قلوبهم، ففي الاستفهام في قوله: (أرأيتم) محاورة لهم، وتوجه لهم بالخطاب، يحاور عقولهم؛ علهم أن ينظروا ويتأملوا، ويراجعوا أنفسهم، ويتبينوا حقيقة الشك المريب الذي أعشى أبصارهم، وأعمى بصائرهم.

وفي أداة الشرط هنا (إن) علاقة وثيقة بموضوع الشك المريب الذي يحيط بهم من كل جانب، فهي تأتي في المقامات المشكوك فيها، وغير المتيقن بها، فهل كان صالح -عليه السلام- في شك من أمره؟ وكان من المتبادر أن تأتي (إذا) فالمقام مقامها، فهي تأتي في الأمور المتيقن بها، المقطوع بصحتها ووقوعها، فما الأسرار البلاغية في ورود (إن) هنا؟ وما علاقتها بالشك المريب؟ وقد طفق المفسرون في ذكر الأسرار والنكت في وراء هذا الاستعمال، فذكر أبو حيان الأندلسي: أن هذا هو الذي يتوافق مع حال المخاطبين، فهو يخاطب قومًا كافرين كاذبين جاحدين لهذه البينة التي جاء بها، فمن البلاغة . والحالة هذه ـ مراعاة حالهم، ومجيء الكلام متوافقًا مع ما في قلوبهم[1] من الشك والارتياب، وقد أكد هذه الحقيقة وقررها البقاعي في قوله: ((ولما أبرزوا له أمرهم في قالب الشك على سبيل الجزم قابلهم بمثله على سبيل الفرض؛ إنصافًا لهم؛ لئلا يلائم الخطاب حال المخاطبين فاستأنف -سبحانه- الإخبار عنه بذلك في قوله: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ (إن كنت) أورده بصيغة الشك؛ لأن خطابه للجاحدين))[2]، كما أن في ذلك – كما يذكر أبو السعود – ((رعاية لحسن

(١) انظر: البحر المحيط: ١٧٦/٦.

(٢) نظم الدرر: ٣٢١/٩.

المحاورة؛ لاستنزالهم عن المكابرة)) [1]، وليكون أدعى إلى إقبالهم عليه، وقبولهم دعوته، فهو نبي يهمه إيمان قومه، ومخاطبتهم بهذا الطريقة أقرب إلى القبول، وأدعى إلى الإنصاف.

وقد تلطف معهم نبي الله صالح -عليه السلام- في الخطاب، فجاء رده متوافقًا مع الشك المريب الذي ملأ قلوبهم؛ بلاغة منه وحكمة، فهم قومه، ويهمه إيمانهم، ويهمه أن يزول الشك المريب من قلوبهم؛ ولذا ناداهم بقوله: يا قوم؛ تلطفًا وتوددًا.

جاء قوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ ردًا بليغًا مفحمًا على قولهم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، فقد اقتلع جذور الشك والريب من قلوبهم، وبيّن تهافته وضعفه وبطلانه وعدم صحته ومشروعيته، فهو على بينة من الله، وهي الحجة الظاهرة، والبرهان الواضح[2]، الصحيح السالم من كل ريبة، الخالص من كل تهمة، وفي حرف الجر (على) بدلالته على الاستعلاء دلالة على تمكن نبي الله صالح من هذه البينة، فهو على بينة من أمره، ويقين من دعوته، وعلى بصيرة وهدى من الله، فإن كنتم غارقين في شككم المريب الذي أحاط بكم من جميع جوانبكم، فأنا على بينة وبصيرة من أمري، وبهداية من ربي، ولعل هذا هو السر في مجيء لفظة الرب مضافة إلى ضمير المتكلم في قوله: ﴿مِّن رَّبِّي﴾ فهو خالقي وسيدي ومالك أمري.

فأنتم وكما ذكرتم عن أنفسكم في شك مما أدعوكم إليه مريب، وأما أنا فإني على بينة من ربي وعلى هدى وبصيرة، فهل يحسن بي وهذا حالي وهذا حالكم أن أتبعكم، وأسير خلف ركابكم؟! وقد أنكر عليهم ذلك كله، وأغلظ عليهم في الخطاب

(١) إرشاد العقل السليم: ٤/٢٢١.

(٢) انظر: فتح القدير: ٢/٢٧٥.

بعد لينه وترفقه، وأنكر عليهم موقفهم وأقوالهم، وحاجهم ودحض حجتهم بقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾

وفي لفظة الجلالة في قوله: (من الله) إظهار في مقام الإضمار، ولو جاء الكلام على مقتضى الظاهر لقيل: فمن ينصرني منه، وفي هذا الإظهار سر بلاغي يتوافق مع ما في قلوبهم من الشك المريب نحو صالح ودعوته، إظهار فيه ما فيه من التهويل والترهيب، وهو المناسب لأحوال أولئك الأقوام الكافرين بصالح المكذبين بدعوتهم، فلن تجد أجدى ولا أنفع وأبلغ من التهويل والترهيب زاجرًا لهم.

وللبقاعي كلام بليغ عن هذا الإظهار وبلاغته في هذا المقام، يقول: ((وأظهر موضع الإضمار وعبر بالاسم الأعظم؛ لاقتضاء المقام التهويل فقال: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي الملك الأعظم إن عصيته؛ أي: إن وقوعكم في الشك على زعمكم حملكم على هيئة الإباء في التلبس بأعمالهم مع زوالهم واضمحلالهم لو كانوا موجودين... وأما أنا فالذي أمرني بعبادته حي قادر على جزاء من يطيعه أو يعصيه، وأقل ما يحمل على طاعته الشك في عقوبته وهو كاف للعاقل في ترك الخطر))[1].

وقد جاء قوله: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ في بيان ما هم عليه من الضلال، وبيان عاقبة أمرهم، وبيان مآل الشك المريب الذي في قلوبهم، فسيؤول بهم إلى شر حال، وهي الخسارة والخسران في الدنيا والآخرة؛ ولذا فهو لن يعرض نفسه إلى غضب ربه عليه، ولن يغنوا عنه من الله شيئًا، فما تزيدونني غير تخسير، والمعنى: ((فمن ينصرني من الله: فمن يمنعني من عذابه إن عصيته في تبليغ رسالته، غير تخسير: غير أن تخسروني بإبطال ما منحني الله به،

(١) نظم الدرر: ٣٢١/٩.

والتعرض لعذابه، أو فما تزيدونني بما تقولون لي غير أن أنسبكم إلى الخسران»[1].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠ ﴾ إبراهيم: ٩ – ١٠.

يذكر الله – سبحانه– في هذه الآيات أحوال الأمم السابقة مع أنبيائها، فقد كفروا بما جاؤوهم به من البينات والهدى، وذكروا لهم أنهم في شك مريب من دعوتهم، ومن كل ما يدعونهم إليه، وفي قوله ـ سبحانه ـ: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ دلالة مهمة في هذا المقام، وفي رد دعواهم أنهم في شك مريب مما يدعونهم إليه، وفي لفظة ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ رد عليهم، وقطع لمعاذيرهم، فالذي جاء به أنبياؤهم، والذي يدعونهم إليه آيات بينات واضحات لا يخفى أمرها، ولا تلبس بغيرها بما فيها من حجج ودلالات، تؤكد لهم حقيقة ما يدعونهم إليه[2]، فمن حق الآيات البينات الإقبال عليها، والإيمان بها، لا الإعراض عنها، والكفر بها، وأن يكون موقفهم منها الشك والارتياب، فموقفهم منها وارتيابهم فيها يعارض كونها بينات ويتنافى معها، كيف لا وقد ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات: أي بالأدلة الدالة على صدق ما جاؤوا به فلم

(١) أنوار التأويل وأسرار التنزيل للبيضاوي: ٣/١٤٠.

(٢) انظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن: ١٦/٣٥٠.

يرسل الله رسولًا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، فحين أتتهم رسلهم بالبينات لم ينقادوا لها بل استكبروا عنها ﴾ [١]، وكذبوا بها، وارتابوا فيها، وقد عبروا عن كذبهم وارتيابهم بها وإعراضهم عنها بالفعل والقول معًا؛ دلالة على شدة تكذيبهم، وقوة ارتيابهم فيها، يدل على ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾

فأما فعلهم فقد جاء بيانه في قوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ وقد تعددت أقوال المفسرين في بيان المعنى المراد بفعلهم هذا، فقيل: إن المراد بذلك: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم، وعضوا على أناملهم غيظًا وحنقًا على أنبيائهم، فقد جرت العادة أن المرء إذا اغتاظ عض على يده، فعلوا ذلك غيظًا على الرسل وعلى ما دعوهم إليه[٢]، وقد يكون دافعهم إلى ذلك السخرية والاستهزاء بالرسل – عليه الصلاة والسلام– وبما جاؤوا به، كفعل من غلبه الضحك فوضع يده على فمه[٣]، وقد أرادوا بفعلهم ذلك أن يسدوا ﴿ على الرسل منافذ القول، فلم يدعوهم يبلغون رسالات ربهم، بل قعدوا لهم بالمرصاد، كلما هموا بأن ينطقوا بدعوة الحق تصدى لهم السفهاء والحمقى من أقوامهم يسخرون ويلغون ويصخبون، فكأنهم بهذا قد وضعوا أيديهم على أفواه الرسل، وحالوا بينهم وبين أن ينطقوا﴾ [٤]، وفي بيان المراد بهذا الفعل دلالة على المكر والسوء الذي وصل إليه القوم.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٤٢٢/١.
(٢) انظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٣٥٠/١٦.
(٣) انظر: الكشاف: ٥٤٢/٢.
(٤) التفسير القرآني للقرآن: ١٥٥/٧.

فلا غرو وهذه حالتهم، وهذا فعلهم أن يكون قولهم وموقفهم من تلك الآيات البينات أن يكون منها ومعها في شك مريب، وقد صرحوا بذلك في قولهم: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ ﴾ وصرحوا بكفرهم بالرسل وبما أرسلوا به، ثم أتبعوا ذلك بقولهم: ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴾ وهو موضع الشاهد في هذه الآيات، ومن خبثهم أن جاء قولهم: ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴾ بعد تصريحهم بالكفر، فكيف يذكرون بعد ذلك أنهم كانوا في شك مريب؟

وقد ذكر هذا التساؤل الإمام البيضاوي وأجاب عنه بقوله: ((كأنهم قالوا: إما أن نكون كافرين برسالتكم، أو ندع هذا الجزم واليقين، فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في صحة نبوتكم، وعلى التقديرين فلا سبيل إلى الاعتراف بنبوتكم والله أعلم))[1].

وكأن قولهم: ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴾ بعد تصريحهم بالكفر تنزلٌ منهم مع الخصم، ومجاراة لهم خبثًا منهم ودهاء، ومرادهم أننا ((كافرون برسالتكم، وإن نزلنا عن هذا المقام فلا أقل من أنا نشك في صحة نبوتكم، ومع كمال الشك لا مطمع في الاعتراف بنبوتكم)) [2]، يدل على خبثهم وشدة دهائهم ومكرهم بناء جملة ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴾ وبلاغتها، فقد جاءت الجملة مؤكدة بإن واللام؛ دلالة على تحقق هذا الشك المريب القائم في قلوبهم على الرسل، وعلى ما يدعونهم إليه، ففيه تأكيد له وتقرير، يدل على ذلك حرف الجر (في) بدلالته على الظرفية، فقد توغلوا في هذا الشك، وتمكنوا منه وتمكن منهم، وغرقوا فيه، فأحاط بهم من جميع جوانبه، لا

(١) تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١٩/ ٧٠.

(٢) فتح القدير: ١١٧/٣.

يجدون منه فكاكًا ولا خلاصًا، فقد ((جعلوا الشك قويًا فلذلك عُبر عنه بأنه مظروفون فيه، أي: هو محيط بهم، ومتمكن كمال التمكن)) [1]، ولا غرو أن يبلغ بهم هذا الشك مبلغه، وأن ينال منهم، ويتمكن فيهم، فهو شك عظيم، كما يدل على ذلك تنكير لفظة (شك)، شك وأي شك! ولأنه كذلك فقد تجاوزوا الشك إلى الريب؛ ولذا وُصف الشك بأنه مريب، وفي وصفهم للشك بالمريب خبث منهم ودهاء، فقد تجاوزوا الشك، وعدم اليقين والتردد إلى الاتهام والارتياب؛ دلالة على أنهم قد جاؤوا بريبة، فأمر هؤلاء الرسل موقع في الريبة وموجب للتهمة[2]، وهو قلق النفس واضطرابها، وعدم سكونها وقرارها، فأصبحت نفوسهم لا تطمئن إليهم ولا تصدقهم فيما يدعونهم إليه[3]، وفي وصف الشك بالمريب تقوية له وتوكيد، وهو ((من تأكيد ماهيته كقولهم: ليل أليل وشعر شاعر)) [4]، وفي وصف الشك بالمريب منهم دلالة أنهم تجاوزوا مرحلة التردد في أمر الرسل، فقد اتخذوا قرارهم وبيتوا موقفهم من الرسل، ومما يدعونهم إليه، فلو كان الشك موقفهم لرُجي إيمانهم، ولطُمع في إسلامهم، فإن الشك يزول بزوال أسبابه، ومن هنا تتجلى بلاغة وصف الشك بالمريب في هذا المقام.

وقد جاء قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ ردًا على قول المشركين ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ

(١) التحرير والتنوير: ١٣/١٩٨.

(٢) محاسن التأويل: ٣/٣١.

(٣) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٣/١٩٤.

(٤) التحرير والتنوير: ١٣/١٩٨.

مُرِيبٍ ﴾ فجاء جوابًا لسؤال مقدر، فكأنه قيل: ما قالت لهم الرسل حين قالوا:﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[1]؟ ولذا جاء الفصل بين الآيتين في الدلالة على هذا المعنى، وإشارة إليه، ومن بلاغة القرآن، وبلاغة محاججته لهم في هذا المقام: أن قال لهم: أفي الله شك؟ دون أفي الله ريب؟ مع أن الريب أشد وأقوى! والحكمة في ذلك –والله أعلم– أن الشك هو أولى درجات الريب، فالشك اعتدال النقيضين، والتردد في الأمر، بخلاف الريب، فهو شك مع تهمة، وهو موقف هؤلاء المكذبين مع رسلهم، فإذا انتفى الشك انتفى معه الريب، وقد يكون شك دون ريب، بخلاف الريب فإنه متضمن الشك، ومتجاوزه إلى التهمة والريب فيه، ومن هنا جاء قوله: (أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ) في الدلالة على هذا المعنى.

وقد جاء الاستفهام في قوله: (أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ) ردًّا على قولهم: ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ وفي هذا الاستفهام كثير من المعاني البلاغية، ففيه دلالة أولًا: على النفي، وهو نفي ما اعتقده هؤلاء المشركون في الرسل، وفيما يدعونهم إليه[2]، وقد قادهم هذا الاعتقاد الباطل إلى أن يكونوا في شك مريب، وفي الاستفهام أيضًا: تقريع وتوبيخ لهم، يدل على ذلك قول الشوكاني: ((والاستفهام للتقريع والتوبيخ أي: أفي وحدانيته –سبحانه– شك؟ وهي في غاية الوضوح والجلاء)) [3]،كما أن فيه دلالة أيضًا: على معنى الإنكار ((ومورد الإنكار هو وقوع الشك في وجود الله عز وجل)) .[4]

(١) انظر: فتح القدير: ١١٧/٣.
(٢) انظر: معالم التنزيل: ٣٢/٣.
(٣) فتح القدير: ١١٧/٣.
(٤) التحرير والتنوير: ١٩٨/١٣.

وهكذا تعددت معاني الاستفهام وتنوعت في هذه الآية، ولا تعارض بينها، فالمقام يدل عليها، ويقتضيها أيضًا، ففي توافر هذه المعاني وتضافرها رد على موقفهم، واقتلاع للشك من جذوره من قلوبهم، وفي تعدد هذه المعاني دلالة على قوة الشك الذي يملأ قلوبهم، وكيف لا يكون قويًّا، وقد صار مريبًا؟! فقد تجاوزوا الشك إلى الارتياب والاتهام، فمن المناسب وهذه حالتهم حشد كثير من المعاني البلاغية، والأساليب البيانية في رد هذا الشك المريب، واقتلاعه من أساسه.

وقد دخلت همزة الاستفهام على الجار والمجرور في قوله: (أفي الله شك)، وقد تضمن هذا التقديم سرًّا بلاغيًّا، وذلك أن ﴿ الكلام ليس في الشك، إنما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشك؛ لظهور الأدلة وشهادتها عليه ﴾.[1]

وقد اقتضى المقام تقديم ﴿ متعلق الشك؛ للاهتمام به، ولو قال: أشك في الله لم يكن له هذا الوقع... والمراد: إنكار وقوع الشك في أهم الصفات الإلهية، وهي صفة التفرد بالإلهية؛ أي صفة الوحدانية﴾.[2]

ولأن الله -سبحانه وتعالى- أبعد ما يكون عن الشك، فضلًا عن الارتياب فيه، جاء قوله: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ متممًا لمعاني الاستفهام، ومؤكدًا لها، فكيف ينكر من هذه أفعاله، وتلك صفاته -سبحانه وتعالى-؟! إذ الكلام هنا عن المشكوك فيه، وليس في الشك، ولهذا قالت لهم رسلهم: ﴿ إنما ندعوكم إلى الله وهو لا يحتمل الشك؛ لكثرة الأدلة وظهور دلالتها عليه، وأشاروا إلى ذلك بقولهم: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ ﴾.[3]

---

(١) الكشاف: ٢/٥٤٢.

(٢) التحرير والتنوير: ١٣/١٩٨.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٣/١٩٤.

وقد تضمن قوله: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ الدليل القاطع على انتفاء الشك عن الخالق -عز وجل- وكيف يكون الشك فيه وهو فاطر السماوات والأرض، وخالق الناس جميعًا من العدم؟! ولذا ففي قوله: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ تأكيد لكل المعاني البلاغية التي تضمنها الاستفهام في قولهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾ ومن هنا تتجلى بلاغة هؤلاء الرسل وحكمتهم فقد ((ذكروا بعد إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الإنكار من الشواهد الدالة على عدم الشك في وجوده - سبحانه - ووحدانيته، فقالوا: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ أي خالقهما ومخترعهما ومبدعهما وموجدهما بعد العدم (يدعوكم) إلى الإيمان به)) .[1]

ومن هنا يتبين الارتباط الوثيق بين قول الرسل -عليهم الصلاة والسلام: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ وبين قول المشركين: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴾ ، يتجلى هذا الارتباط من جهتين: الجهة الأولى: أن من شك بالله -عز وجل- مع ظهور الدلائل، ومع وجود البينات فهو لما سواه أكثر شكًّا وارتيابًا، فلا غرو والحالة هذه أن يكون موقفهم من الرسل الشك المريب، وقد أشار إلى هذا المعنى السعدي في تفسيره لهذه الآيات في قوله: ((وقد كذبوا في ذلك وظلموا، ولهذا قالت لهم رسلهم ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ ﴾ أي فإنه أظهر الأشياء وأجلاها، فمن شك في الله فاطر السماوات الأرض الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده، لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات حتى الأمور المحسوسة، ولهذا خاطبتهم الرسل خطاب من لا يشك فيه ولا يصلح الريب

(١) فتح القدير: ٣/١١٧.

فيه....، ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾: أي بحجة وبينة ظاهرة ومرادهم بينة يقترحونها هم، وإلا فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم بالبينات)).[1]

الجهة الثانية: أن شكهم في الرسل، وأن يكون موقفهم منهم هو الشك المريب في ذلك دلالة على شكهم وكفرهم بمن أرسلهم وهو الله -سبحانه وتعالى- فقد اتخذوا الشك المريب بالرسل ذريعة للكفر والشك بالمرسل وهو الله -سبحانه وتعالى-، فهم أنبياؤه ورسله؛ ولهذا قالت لهم الرسل: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾؛((أي إذا كنتم تشكون فينا فهل تشكون في الله، وفي وجوده؟ وهو الذي خلق السماوات والأرض؟ إن الشك فينا هو شك في الله إذ إن دعوتنا هي دعوة إلى الايمان بالله، والإقرار بوحدانيته)).[2]

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٤٢٢/١.

(٢) التفسير القرآني للقرآن: ١٥٧/٧.

المبحث الثاني:

مقام تكذيب كفار قريش للرسول ﷺ

سأتناول في هذا المبحث مواضع آيات (في شك مريب) في مقام تكذيب كفار قريش للرسول ﷺ. ولما جاء به من البينات والهدى، وسأذكر تلك المواضع بناء على ترتيبها في المصحف؛ للنظر في بلاغة هذا التركيب، وما تضمنه من أسرار بلاغية؛ وفاء للمقام الذي جاء فيه.

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ هود: ١٠٩ – ١١٢.

جاء قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، والمعنى كما يذكر ابن كثير: ((فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء المشركون أنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل؛ أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات)).[1]

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣٠٣/٤.

وبين النهي في قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ وبين الآيات التي تقدمتها بما فيها من ذكر للأمم السابقة، ومصير تلك الأمم، من مؤمنين وكافرين ارتباط وثيق، وعلاقة ظاهرة؛ ولذا جاء قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ متفرع عنها، وذلك أن قصص الأمم الماضية، وما جرى لهم فيها من أحداث ((فإنها تكسب سامعها يقينًا بباطل ما عليه عبدة الأصنام، وبخيبة ما أملوه فيهم من الشفاعة في الدنيا، وإن سابق شقائهم في الدنيا بعذاب الاستئصال يؤذن بسوء حالهم في الآخرة، ففرع عن ذلك نهي السامع أن يشك في سوء الشرك وفساده)) .[1]

وللنهي في قوله: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ دلالة مهمة في هذا المقام، ودلالة مهمة في بيان موقف المشركين في كونهم في شك مريب، وسيتبين هذا في دراسة هذه الآيات، ومعنى قوله: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ ((أي فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم، وتعرضهم بها لما أصاب أمثالهم قبلهم؛ تسلية للنبي ـ ﷺ ـ وعدة بالانتقام منهم، ووعيدًا لهم)).[2]

والمراد بهؤلاء: كفار قريش، وقد جاء النهي في شك بطلان ما يعبده هؤلاء المشركون، وقيل: إن النهي عن الشك في سوء عاقبتهم في الآخرة جزاء كفرهم بربهم، ولا تعارض بين هذين القولين.[3]

---

(١) التحرير والتنوير: ١٢/١٧٦.

(٢) الكشاف: ٢/٤٣١.

(٣) انظر: فتح القدير: ٢/٥٩٩.

ولم يكن النبي -عليه الصلاة والسلام- شاكًّا -حاشاه- حتى ينهاه ربه بقوله: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ ﴾ ولذا فهو ((لغيره ممن يداخله شيء من الشك؛ فإنه - عليه السلام- لا يشك في ذلك أبدًا))[1]؛ ولذا ففي هذا النفي ((تأكيد لما في قلب النبي . ﷺ - من إيمان بربه، وتثبيت له على الطريق الذي هو قائم عليه، وإنْ لقي ما لقي من ضر وأذى)) .[2]

ولابن عطية الأندلسي كلام نفيس في بيان معنى هذا النهي ودلالاته، يقول: ((لفظ الخطاب للنبي . ﷺ . والمعنى له ولأمته، ولم يقع لأحد شك فيقع عنه نهي، ولكنه من فصاحة القول في بيان ضلالة الكفرة، وإخراجه في هذه العبارة؛ أي حالهم أوضح من أن يمتري فيها)) [3]، والمراد بالمرية هنا الشك، والمعنى: لا تفعل فعل من هو في مرية، بأن تضطرب من أجل ما يعبدون.[4]

وقد آثرتُ بيان معنى هذا النهي، وذكر دلالاته في قوله: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ ﴾؛ لأن لها علاقة وثيقة بموضوع الدراسة في هذا المبحث، فقد جاءت في مقابل بيان موقف المشركين وأنهم في شك مريب، فإذا كان هؤلاء المشركون غارقين في الشك المريب فإنه -عليه الصلاة والسلام- وأصحابه وأمته أبعد ما يكونون عن الشك فضلًا عن الارتياب.

---

(١) فتح القدير: ٢/٥٩٩.

(٢) التفسير القرآني للقرآن: ٦/١٢٠٤.

(٣) المحرر الوجيز: ٣/٢٠٩.

(٤) انظر: نظم الدرر: ٩/٣٨٥.

وبعد أن نهى – سبحانه– رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يرتاب في أمر هؤلاء المشركين بيّن حالهم، فذكر أنهم ﴿ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾

فحالهم في الشرك كحال آبائهم فهم على آثارهم مقتدون، وعلى خطاهم في الكفر سائرون، فلا غاية لهم إلا اتباع آبائهم في جهلهم وشركهم[١]، فهم ((مقلدون لا برهان عندهم ولا حجة، وإنما عبادتهم تشبهًا منهم بآبائهم لا عن بصيرة)) [٢]، فلا غرو وهذه حالتهم أن يكونوا في شك مريب؛ ولذا توعدهم – سبحانه– بقوله: ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ ففيه وعيد لهم وتهديد بأن الله سيجازيهم بشر أعمالهم، ولن ينقص من عذابهم شيئًا. [٣]

وفي قوله: ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ تهكم بهم –أيضًا– وسخرية تليق بهم وبمواقفهم من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن دعوته؛ وذلك أن ((التوفية: إكمال الشيء غير منقوص... وقد استعمل (موفوهم ونصيبهم) هنا استعمالًا تهكميًّا، كأن لهم عطاء يسألونه فوفوه، فوقع قوله: (غير منقوص) حالًا مؤكدة؛ لتحقيق التوفية، وزيادة في التهكم)) .[٤]

ولأنهم يعبدون ما يعبد آباؤهم، ولأنهم مقلدون لهم؛ فقد عطلوا عقولهم، فلا برهان لهم، وليس لهم الحجة، فلا غرو –وهذه حالتهم– أن يكونوا في شك مريب؛ ولذا جاء ذكر هذه الحقيقة وبيانها بعد كل ما تقدمها فقال –سبحانه–: ﴿ وَإِنَّهُمۡ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣٠٣/٤.

(٢) المحرر الوجيز: ٢٠٩/٣.

(٣) التفسير القرآني للقرآن: ١٢٠٥/٦.

(٤) التحرير والتنوير: ١٦٩/١٢.

لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ والضمير في قوله: (منه) يعود على القرآن الكريم، يدل على ذلك استفتاح الآية بذكر الكتاب الذي آتاه الله موسى -عليه الصلاة والسلام- في قوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَبَ ﴾ فكأن الحديث ما زال موصولًا عن الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه، وبيان موقف أقوامهم الكافرين منها، يدل على ذلك ويؤكده قول أبي السعود في تفسير هذه الآية:((أي من القرآن وإن لم يجر له ذكر؛ فإن ذكر إيتاء كتاب موسى، ووقوع الاختلاف فيه لا سيما بصدد التسلية ينادي به نداء غير خفي)).[1]

تم بيان موقف المشركين من القرآن في قوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ وقد جاء تركيب هذه الجملة دالًّا على مدى هذا الشك المريب الذي تمكن في قلوبهم نحو القرآن الكريم، فقد تضافر التوكيد والتنكير والاستعارة بما توافر في كل واحد منها في الدلالة على هذا المعنى وإبرازه، فقد جاء التوكيد (بإن واللام) ليؤكد هذه الحقيقة ويقررها، وفي ذلك تسجيل عليهم، ووصمهم بهذا الموقف المشين من القرآن، فحقه الإقبال عليه، والإيمان به، وتصديق ما جاء فيه، لا الشك فيه ولا الامتراء.

وفي حرف الجر (في) بدلالته على الظرفية دلالة على تمكن الشك من قلوبهم، فقد أحاط بهم من جميع جوانبهم، وقد انغمسوا فيه؛ ولذا لا يرون حقيقته، ولا يهتدون بهديه، فقد صار هذا الشك حجابًا أعمى أبصارهم، وطمس بصيرتهم، يدل على عظم وقوة هذا الشك تنكيره، ففيه دلالة على التعظيم، فكأنه شك فوق شك، وكأنه شك مغاير لما عرفه الناس، فقد جرت العادة أن يكون الشك ضعيفًا، لا تثبت له حجة، ولا يقوم له دليل، أما شك هؤلاء في القرآن الكريم فهو

(١) إرشاد العقل السليم: ٤/٢٤٤.

شك قوي متمكن، يدل على ذلك وصف الإمام البقاعي له في تفسير هذه الآية بأنه ﴿عظيم محيط بهم﴾.[1]

ولو كان موقفهم من القرآن الكريم الشك لهان -وما هو بهين- فسيزول الشك بزوال أسبابه، وستظهر لهم حقيقة القرآن الكريم، ولكنهم تجاوزوا شكهم إلى الارتياب في القرآن الكريم؛ ولذا جاء الشك هنا موصوفًا بالريب، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾، فقد أوقعهم في الريب، وأصابتهم بسببه الحيرة والاضطراب، فجعلوه مرمى لهم يرمونه بالاتهامات الباطلة، فقد تعددت مواقفهم من القرآن الكريم، وكثر فيه ريبهم واتهاماتهم، فقد ارتابوا فيه، وقالوا فيه قولًا عظيمًا، فمرة يقولون عنه سحر، ومرة شعر، ومرة أساطير الأولين؛ ولذا فهم في شك منه مريب، ففي وصفهم لشكهم بأنه مريب تقوية لذلك الشك وتأكيد له، وفي وصفهم الشك بالريب خبث منهم ودهاء، ولهم في ذلك أغراض دنيئة شتى، فكأنهم صاروا متيقنين بحقيقته، موقفهم منهم موقف المتيقن الواثق، ولهم في ذلك أسبابهم وأدلتهم التي قادتهم إلى هذا الارتياب وإلى هذا الموقف، فلم يكن شكهم فيه لأسباب متعلقة بهم، وإنما لما تضمنه القرآن -بزعمهم- من أمور باطلة تدعو إلى الارتياب فيه والتناقض والاضطراب.

ولقوله -تعالى- في صدر الآية ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ دلالة وثيقة على موقف المشركين من القرآن، وأنهم في شك مريب، فقد جيء بها تسلية لقلب الرسول ﷺ . وتثبيتًا لقلوب المؤمنين، وبيانًا لحقيقة هؤلاء المشركين، وبيانًا لحقيقة القرآن الكريم، والمعنى: ﴿ أن هؤلاء الكفار كانوا على هذه السيرة الفاسدة مع كل الأنبياء، وضرب لذلك مثلًا، وهو أنه أنزل التوراة على موسى، واختلفوا فيه قبله، فبعضهم أنكره، وذلك يدل على عادة

(١) نظم الدرر: ٣٨٩/٩.

الخلق)) [1]، فلا تذهب نفسك حسرات عليهم، ولا تحزن من اختلاف قومك عليك، فأهل الكفر ملة واحدة، وجميعهم اختلفوا على أنبيائهم، وقالوا فيهم وفيما جاؤوهم به قولًا عظيمًا[2]، فلا عجب والحالة هذه أن يكون موقف قومك في شك مريب من القرآن الكريم، فهذا هو ديدن الأقوام مع أنبيائها.

وكذلك لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ دلالة مهمة على موقف المشركين من القرآن، وأنهم في شك منه مريب، فقد طغوا وبغوا وافتروا في القرآن الكريم افتراء عظيمًا، كيف يكون موقفهم من القرآن الشك والريب وقد أنزله الله هداية للناس، وجعله رحمة للعالمين، وجعله آيات بينات؟! فمن حقه الإقبال عليه والإيمان به لا الإعراض عنه والكفر به، فقد أوجبوا على أنفسهم العذاب، فما سبب عدم إهلاكهم، وما سبب تركهم وعدم مؤاخذتهم بشر أفعالهم، وسوء مواقفهم من القرآن فجاء قوله: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ إجابة شافية، وبيانًا كافيًا، والمراد (بالكلمة) هنا ((كلمة الله بأن يؤخرهم إلى أجل مسمى، وألا يعجل لهم العذاب في الدنيا، فلولا هذه الكلمة لقضي بينهم، وأخذ الله الظالمين منهم بما أخذ به الظالمين من الأمم السالفة قبلهم)) [3]، فهذه الكلمة أمان لهم في الدنيا، وإلا فقد أوجبوا العذاب على أنفسهم، في كونهم في شك مريب من القرآن الكريم، وهو أمان لهم في الدنيا، وسيجازيهم في الآخرة على سوء صنيعهم، يدل على ذلك قوله: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ففي ذلك وعيد عظيم، وتهديد شديد لهم، وبيان لما ينتظرهم من العذاب، وسيوفيه إياهم كاملًا غير منقوص، فالجزاء من جنس العمل،

(١) مفاتيح الغيب: ١٨/٤٠٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير: ١٢/١٦٩.

(٣) التفسير القرآني للقرآن: ٦/١٢٠٥.

فقد عظم العذاب لعظم العمل الصادر منهم، فقد كان هذا العذاب جزاء مواقفهم من القرآن، في كونهم في شك مريب منه، وفي ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ دلالة أنه -سبحانه- قد أحاط بكل شيء علمًا ﴿لا تخفى عليه شيء من جلائله ودقائقه، وهو تعليل لما سبق من توفية أجزية أعمالهم، فإن الإحاطة بتفاصيل أعمال الفريقين، وما يستوجبه كل عمل بمقتضى الحكمة من الجزاء المخصوص توجب توفية كل ذي حق حقه إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر﴾ .[1]

الموضع الثاني: قول الله تعالى:﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٥١ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٥٢ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبٖ ٥٤﴾ سبأ: ٥١ ــ ٥٤.

جاءت هذه الآيات في نهاية سورة سبأ في بيان حال المشركين يوم القيامة، وقد عاينوا العذاب الذي توعدهم الله به، وكانوا به مكذبين، وله منكرين، فيخاطب الله رسوله ـ ﷺ ـ مبينًا له حال القوم، وما هم فيه من الخوف والفزع ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ والمعنى كما يذكر الإمام السعدي ﴿ ولو ترى أيها الرسول هؤلاء المكذبين إذ فزعوا حين رأوا العذاب، وما أخبرتهم به الرسل لرأيت أمرًا هائلًا، ومنظرًا مفظعًا، وحالة منكرة، وشدة شديدة، وذلك حين يحق عليهم العذاب، فليس لهم عنه مهرب ولا فوت، (وأخذوا

(١) إرشاد العقل السليم: ٤/٢٤٤.

من مكان قريب)؛ أي ليس بعيدًا عن محل العذاب، بل يؤخذون ثم يقذفون في النار)).[1]

وقد حذف جواب (لو) في هذا المقام، ولحذفه دلالة متعلقة بشدة هذا العذاب وفظاعته، فكأن العبارة لا تحيط به، والوصف الدقيق لا يكشفه ولا يبينه؛ تهويلًا له وتعظيمًا، وجواب الشرط للحرف (لو) محذوف للدلالة على أنه لا يحيط به الوصف ((ومن صور الجواب التي تقع في التصور: أن الذي يراهم في تلك الحال يرى أهوالًا يموج فيها القوم، لا يستطيع الناظر أن ينظر إليها، ويملأ عينيه منها، إنها شيء مخيف مفزع فظيع)) [2]، فلو قُدر ورأى النبي ـ ﷺ ـ عذابهم لرأى أمرًا عظيمًا، وحالًا مفزعًا، وعذابًا شديدًا. [3]

وفي قوله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ بيان لحالتهم يوم القيامة وقد رأوا ما يُوعدون، ووقع أمام أعينهم ما كانوا به يسخرون ويكذبون، فقد أحاط بهم الفزع من كل جانب، وبلغ بهم الخوف مبلغًا عظيمًا، وفي إسناد الفعل (وَأُخِذُواْ) إلى ما لم يسم فاعله مزيد من الترهيب والتعظيم لما هم فيه من العذاب، فهم يساقون إلى العذاب سوقًا، وكل يتناولهم من طرف، وفيه معنى القوة؛ ودلالة أيضًا أن لا حول لهم ولا قوة، فقد سلموا أنفسهم للملائكة تتولى أمرهم، وتأخذهم حيث يأمرهم ربهم. ولشدة ما يرون من العذاب والنكال يؤمنون بربهم، ويصدقون بيوم البعث والنشور؛ ظنًّا منهم أن ذلك ينفعهم وينجيهم مما هم فيه من الآلام والأهوال، وقد حكى القرآن عنهم ذلك في قوله:﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦٨٣/١.
(٢) التفسير القرآني للقرآن: ٨٤٥/١١.
(٣) انظر: الكشاف: ٥٩٢/٣.

ويعود الضمير (به) على كل ما كانوا به كافرين في الدنيا مما كان يخبرهم به الرسول –عليه الصلاة والسلام– ويأمرهم بالإيمان والتصديق به، وقد فصل الطاهر بن عاشور هذا الإجمال بقوله: ((وضمير (به) للوعيد، أو ليوم البعث، أو للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو للقرآن، فأجملوا فيما يراد الإيمان به؛ لأنهم ضاق عليهم الوقت فاستعجلوه بما يحسبونه منجيًا لهم من العذاب)).[1]

ولكن هيهات يفيدهم هذا الإيمان، ومحال أن يقبل منهم، وقد جاء الرد على إيمانهم بقوله: ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ والمعنى – كما يذكر الإمام الطبري– ((وقالوا آمنا بالله في حين لا ينفعهم قيل ذلك، فقال الله: ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ ﴾ أي وأين لهم التوبة والرجعة؟ أي قد بعدت عنهم فصاروا منها كموضع بعيد أن يتناولوها، وإنما وصفت ذلك الموضع بالبعيد؛ لأنهم قالوا ذلك في القيامة فقال الله: أنى لهم بالتوبة المقبولة، والتوبة المقبولة إنما تكون في الدنيا وقد ذهبت الدنيا، فصارت بعيدًا من الآخرة))[2].

وفي لفظة (التناوش) دلالة دقيقة لحال القوم، وتصوير بليغ، وفيها دلالة على الاستبعاد، وعدم التمكن من الشيء والحصول عليه، وهو((تمثيل لطلبهم ما لا يكون، وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا، مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوه، كما يتناوله الآخر من قيس ذراع تناولًا سهلًا لا تعب فيه، ففيه استعارة تمثيلية، شُبه إيمانهم حيث لا يُقبل بمن كان عنده شيء يمكن أخذه فلما بعد عنه فرسخًا مد يده لتناوله)).[3]

(١) التحرير والتنوير: ٢٢/٢٤٢.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٠/٤٢٦.

(٣) محاسن التأويل: ٨/١٥٧.

وقد أكد هذا المعنى وأظهره -أيضًا- الاستفهام بـ(أنى) ففيها معنى الاستبعاد، والتيئيس من الشيء؛ ولذا جاء قوله تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ تأكيدًا لهذه المعاني، وتقريرًا لها، كما أن فيه -أيضًا- بيانًا لما آل إليه هؤلاء المشركون، وبيانًا لحالهم يوم العرض الأكبر على ربهم، وقد صار الإيمان أعز أمانيهم، وغاية مرادهم بعدما كانوا يظهرون الكفر، ويحاربون الإيمان وأهله؛ ولذا فلا يقبل منهم إيمانهم، ويرد عليهم قولهم آمنا به؛ ((فقد حيل بينهم وبين الإيمان وصار من الأمور المحالة في هذه الحالة، فلو أنهم آمنوا وقت الإمكان لكان إيمانهم مقبولًا)) [1]، وقد يراد بذلك أن ((حيل بينهم وبين ما يشتهون من الشهوات واللذات والأولاد والأموال والخدم والجنود، قد انفردوا بأعمالهم، وجاؤوا فرادى كما خلقوا)) [2]، ولا تعارض بين هذين القولين؛ فقد حيل بينهم وبين كل ما يشتهون من ملاذ الدنيا وشهواتها، ومن أغلى مرادهم وهو الإيمان.

هذا هو حال الكفار يوم القيامة، وهذا هو العذاب الشديد الذي ينتظرهم في الآخرة، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وأما حالهم في الدنيا فقد ذكره الله وبينه أتم بيان، فقد جمع في هذه الآيات بين عملهم وجزائهم؛ فالجزاء من جنس العمل، وقد بيّن ما كانوا عليه في الدنيا من الكفر والإعراض في قوله: ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾

هذا هو حال الكفار في الدنيا، وفي الآيات مقابلة بديعة بين قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾، وبين قولهم: ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ ، وقد أظهرت هذه المقابلة

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦٨٣/١.

(٢) المصدر السابق: ٦٨٣/١.

المفارقة العجيبة، والمباينة الواسعة لما كانوا عليه في الدنيا، ولما يؤملون به في الآخرة، مفارقة عجيبة بين الحالتين، بين كفرهم بالدنيا، وإيمانهم الذي لا يغني عنهم شيئًا في الآخرة، وقد تكرر الضمير (به) في الموضعين هنا وهنا، وفي ذكر ما كفروا به بالضمير في قوله: ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ اختصار وبيان شامل لما كانوا عليه من الكفر والإعراض والجحود، فقد كفروا بكل شيء: كفروا بالرسول وبالمرسِل وبكل ما أرسله به، وبما أنزل عليه، وفي تصدير الجملة بقد تأكيد لهذه الحقيقة وتقرير لها، فهي حقيقة ثابتة، فهكذا كان حالهم في الدنيا من الكفر والتكذيب. وقد أكد هذا الواقع، وكشف حقيقتهم وخبثهم الذي كانوا عليه قوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ إشارة إلى التهم والافتراءات التي كانوا يرمون بها رسول الله ـ ﷺ ـ فقد كانوا ((يرجمونه ـ وما آتاهم الله من كتاب الله ـ بالظنون والأوهام، فيقول بعضهم هو ساحر، وبعضهم هو شاعر)).[1]

وفي لفظة (بعيد) هنا دلالة على أن هذه التهم والافتراءات أبعد ما تكون عن الحقيقة والواقع، وأبعد ما تكون عن تحقيق غرضها، وإصابة هدفها، فهي ترتد عليهم، وتصيبهم سهامهم، فيرجع عليهم أثرها وتأثيرها في العاجل والآجل، ومن هنا جاءت لفظة (بعيد) في الدلالة على هذا المعنى، فهم يريدون التأثير في النبي ـ ﷺ ـ بهذه الاتهامات، وتلك الافتراءات ولكن ((لا سبيل إلى ذلك، كما لا سبيل للرامي من مكان بعيد إلى إصابة الغرض، فكذلك الباطل من المحال أن يغلب الحق أو يدفعه)).[2]

وبسبب ما يقذفونه به بالغيب من مكان بعيد فقد تعددت أقوالهم فيه، وتباينت مواقفهم معه، فآل بهم ذلك إلى الشك المريب في أمره، فجاء تأكيد ذلك وتقريره

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٤٢٩/٢٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦٨٣/١.

في قوله -تعالى- في نهاية هذه الآيات: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ وقد جاءت هذه الجملة تعليلًا للجمل التي قبلها؛ إذ ((فُعل بهم جميع ما سمعت؛ لأنهم كانوا في حياتهم في شك من ذلك اليوم، وما وُصف لهم من أهواله، وإنما جعلت حالتهم شكًّا؛ لأنهم كانوا في بعض الأمور شاكين، وفي بعضها موقنين)).[1]

وفي قوله: (كانوا) إشارة إلى حالهم في الدنيا، وما كانوا عليه من الكفر والتكذيب، وبيان لحالهم مع الرسول ﷺ - ومع ما جاءهم به من البينات والهدى، ومع ما كان يأمرهم به، وينهاهم عنه، فقد كذبوا وأعرضوا، ولو كان حالهم وموقفهم من ذلك كله الشك لرُجي إيمانهم، فالشك يزول بزوال أسبابه، ولكنهم كذبوا وكفروا، وارتابوا بأمره، ورموه بكل تهمة، وألصقوا به كل فرية، ((فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب)) [2]، فكان هذا دأبهم، وكان ذلك وصفهم المعروف عنهم الثابت لهم، فقد عُرفوا به وتوغلوا فيه، ولعل هذا هو السر في وصف الشك بأنه مريب، فقد توالى منهم هذا الشك وتتابع حتى خرجوا منه ودخلوا في الريب والاتهام؛ دلالة على أنهم كانوا ((في شك يقوم من ورائه شك فلا يخرج بهم الشك إلا إلى شك فلم يكن يقع منهم أبدًا الإيمان بالله، ولو ردوا إلى الدنيا بما هم عليه من طباع لعادوا إلى ما نهوا عنه)).[3]

وفي حرف الجر (في) بدلالته على الظرفية دلالة على ذلك، فقد تمكن منهم هذا الشك المريب، وانغمسوا فيه، فلا خلاص لهم منه ولا فكاك، فقد بلغ بهم هذا الشك المريب مبلغه؛ ((لأنهم كانوا في الدار الأولى شاكين فيما أخبرت به الرسل من البعث والجزاء، وقد تغلغل الشك في قلوبهم حتى صاروا لا يطمئنون إلى شيء

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٢/٢٤٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٦/٤٧٠.

(٣) التفسير القرآني للقرآن: ١١/٨٤٨.

مما جاءوا به)) [1]، فقد أحدث لهم ريبة في قلوبهم، وقلقًا في النفس واضطرابًا، وفي تنكيره دلالة على ذلك، فهو تنكير لتعظيم أمره وتهويله، فقد كان أقوى ما يكون من الشك، وأشده إظلامًا.[2]

وجاء التوكيد في قوله:﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ ليبين الحال التي آل إليها أمرهم، فقد نشؤوا على الشك المريب، وشبوا عليه، وماتوا وهم في شك مريب، وعلى ذلك بُعثوا وحُوسبوا عليه، ((يدل على ذلك قول قتادة – رحمه الله–: إياكم والشك والريبة فإن من مات على شك بُعث عليه، ومن مات على يقين بُعث عليه)) [3]، جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد.

الموضع الثالث: قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾ فصلت: ٤٤ – ٤٥.

جاء قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ في هذه الآيات في مقام تكذيب المشركين بالقرآن الكريم، وهو امتداد لمواقفهم العدائية ضد الرسول ﷺ . وقد جاءت جملة ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ في نهاية هذه الآيات إشارة إلى أنها نتيجة حتمية، ونهاية طبعية لمواقفهم من القرآن الكريم، ومن

(١) تفسير المراغي: ١٠١/٢٢.
(٢) انظر: المحرر الوجيز: ٤٢٧/٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم: ٤٧٠/٦.

الرسول ﷺ . وقد جاءت هذه الآيات بذكر شيء منها في قوله: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ وجاء هذا القول منهم في سياق تعنتهم، وامتدادًا لمواقفهم المشينة والمخزية مع القرآن الكريم، وقد أراد الله فضحهم وكشف ما في قلوبهم من الكفر والعناد تجاه القرآن الكريم فلم يؤمن به القوم رغم فصاحته وقوة بلاغته، ورغم شدة إحكامه في ألفاظه ومعانيه، فذكر -سبحانه- ((أن كفرهم به كفر عناد وتعنت، فلو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنت والعناد ﴿ لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ أي لقالوا: هلا أنزل مفصلًا بلغة العرب، ولأنكروا ذلك وقالوا: أعجمي وعربي؟ أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه... وقيل: هل أنزل بعضها بالأعجمي وبعضها بالعربي؟))[1]، ولم يكن باعثهم الحق وقبوله، بل كانوا يقولوا ذلك إنكارًا وعنادًا، يدل على ذلك قول الزمخشري: ((إن آيات الله على أي طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتًا؛ لأن القوم غير طالبين للحق، وإنما يتبعون أهواءهم)).[2]

وقد جاء الرد على كفرهم وتعنتهم بقوله: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ فالقرآن للمؤمنين هدى يهتدون به في بيان الحق، والتبصر بالصواب، ويهديهم إلى طريق الحق والرشاد، ويعلمهم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم[3]، وهو

(١) تفسير القرآن العظيم: ١٨٤/٧.

(٢) الكشاف: ٢٠٢/٤.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٧٥١/١.

لهم -أيضًا- شفاء لما في الصدر، ولما في القلوب، ((فيزيل أمراض قلوبهم من الرذائل كالنفاق والشك؛ أي تبصرهم بطريق النظر والعمل فتعلمهم وتزكيهم)).[١]

وتنكير لفظتي (هدى وشفاء) للتعظيم، دلالة على أن القرآن الكريم بلغ الغاية في الهداية والشفاء، فهو هداية لكل ضال، وشفاء من كل داء؛ ولذا كان نفعه للمؤمنين عظيمًا، أما الكافرون ففي آذانهم وقر وهو عليهم عمى، والمعنى أن هؤلاء الكافرين ((الذين لا يؤمنون بالله ورسوله وما جاءهم به من عند الله في آذانهم ثقل عن استماع هذا القرآن، وصمم لا يستمعونه، ولكنهم يعرضون عنه، (وهو عليهم عمى) يقول: وهذا القرآن على قلوب هؤلاء المكذبين به عمى عنه، فلا يبصرون حججه عليهم، وما فيه من المواعظ)) [٢]، فقد أعرضوا عن القرآن، وأغلقوا على أنفسهم منافع الاهتداء به، والانتفاع منه بسبب الوقر الذي في آذانهم، فلا يسمعون منه شيئًا، فضلًا عن أن ينتفعوا به؛ بسبب العمى الذي غطى أبصارهم فلا يرون ما فيه من الهدايات والبينات.[٣]

ولأنهم لا يسمعون ولا يهتدون بالقرآن ولا ينتفعون به؛ فإنهم ﴿ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾، وقد جاء قوله: ﴿ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ تأكيدًا للوقر الذي في أسماعهم، وللعمى الذي في أبصارهم؛ دلالة على عدم اهتدائهم بالقرآن، وانتفاعهم به، وذلك حال من نُودي من مكان بعيد فإنه لا يسمع ولا يفهم من المتكلم شيئًا، يدل على ذلك ((قول العرب للرجل القليل الفهم: إنك لتُنادى من بعيد، وكقولهم للفَهِم: إنك لتأخذ الأمور من قريب)) [٤]، وفي اسم الإشارة البعيد

(١) محاسن التأويل: ٣٤٤/٨.
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٤٨٣/٢١.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم: ١٨٤/٧.
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٤٨٤/٢١.

(أولئك) دلالة على هذا المعنى، وتأكيد لهم، ولذلك جاء قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ دلالة على أنهم ((لا يؤمنون بالقرآن، ولا ينتفعون بهداه، ولا يبصرون بنوره، ولا يستفيدون منه خيرًا؛ لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى بإعراضهم وكفرهم)).[1]

وبعد أن ذكر الله -سبحانه- حالهم من القرآن الكريم، وموقفهم منه بيّن ما آل إليه أمرهم، وحكم عليهم في قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ وقد جاء هذا الحكم عليهم نتيجة طبعية لمواقفهم المشينة من القرآن الكريم، ومن الرسول -عليه الصلاة والسلام-، التي ذكر جزءً منها في هذه الآيات، فلا غرو لمن كان في أذنيه وقر، ولمن كان أعمى البصر والبصيرة، ولمن لم ينتفع مما جاء في القرآن الكريم، وكان بعيدًا عنه، لا غرو في هذا وأمثاله أن يكون في شك مريب من القرآن، ومن كل ما جاء فيه، فهي نتيجة لها أسبابها التي تؤول بها إلى هذا الحال، ومن هنا جاء قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ للتأكيد على هذا المعنى والدلالة عليه، والمعنى: ((أن هؤلاء المشركين في شك وارتياب من أمر هذا القرآن فلم تقع آياته وكلماته موقع اليقين منهم؛ لأنهم لم يفتحوا آذانهم له، ولم يوجهوا عقولهم وقلوبهم إليه، فلم يستمعوا إليه إلا بآذان صماء، ولم يلقوه إلا بقلوب مريضة، وعقول سقيمة، فكان حكمهم عليه هذا الحكم الفاسد الذي ملأ قلوبهم شكًا وارتيابًا)).[2]

وإن كان الكافرون في شك مريب من القرآن، فهو للمؤمنين هدى وشفاء، وفي هذا دلالة على أن الشك المريب حصل له بسبب مواقفهم من القرآن الكريم، وبسبب إعراضهم عنه، وقد أشار ابن كثير في تفسير هذه الآيات إلى هذا المعنى،

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ١/٧٥١.

(٢) التفسير القرآني للقرآن: ١٢/ ١٣٣٣.

يقول: « ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ أي قل يا محمد هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر فلا يفهمون ما فيه، وهو عليهم عمى، أي لا يهتدون إلى ما فيه من البيان» [1]، فالقرآن كما يذكر شفاء لما في الصدور من الشكوك والريب، بخلاف الكافرين الذين لا يهتدون إلى ما فيه من البيان، فلا غرو وهذه حالتهم أن يكون منه في شك مريب، وهذا ما جاء تقريره وبيانه في خاتمة هذه الآيات.

وقد أكد هذا المعنى -أيضًا- القاسمي في تفسيره لهذه الآيات؛ إذ بيّن أثر القرآن في المؤمنين في كونه هدى وشفاء، فهو«يزيل أمراض قلوبهم من الرذائل كالنفاق والشك؛ أي تبصرهم بطريق النظر والعمل فتعلمهم وتزكيهم » [2]، فهو يقتلع جذور الشك والارتياب من قلوبهم ولا يبقي فيها شيئًا، بخلاف أهل الكفر والضلال فهم « لا يسمعونه ولا يفهمونه، بل يشتبه عليهم؛ لاستيلاء الغفلة عليهم، وسد الغشاوات الطبيعية طرق أسماع قلوبهم وأبصارهم، فلا ينفذ فيها، ولا ينتبهون بها ولا يتيقظون » .[3]

وقد جاءت الإشارة إليهم بالضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ دلالة على أن المقصود بذلك من تقدم ذكرهم في بداية هذه الآيات، فهم القائلون ﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾، وهم الذين حكم الله عليهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَـٰٓئِكَ

(١) تفسير القرآن العظيم: ١٨٤/٧.

(٢) محاسن التأويل:٣٤٤/٨.

(٣) المصدر السابق: ٣٤٤/٨.

يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، فجاء هذا الضمير لتقرير هذا كله، وللتأكيد أن هذا الشك المريب كان نتيجة أعمالهم، فقد عاقبهم -سبحانه- بشر أفعالهم، وإلا فهو آيات بينات، كما أنه هدى وشفاء، وما شك هؤلاء المشركون وبان ريبهم إلا بسبب مواقفهم من القرآن الكريم التي ذكرها الله عنهم وبينها في هذه الآيات.

بدأ أمرهم بالشك وانتهى بالريب، فهو في بداية أمره شك وتردد وعدم جزم به ويقين، فلم يكن عن علم وبصيرة، ولم يكونوا متثبتين فيه ولا محققين؛ دلالة على أن أقوالهم في القرآن ومواقفهم منه لم تكن على بينة، ولم تصدر عن تثبت، وإنما قالوا فيه ما قالوا ظنًّا وترددًا، ففي الشك دلالة على ضعفه وتهافته، وكان الأولى أن يقودهم هذا الشك إلى السؤال والعلم لا إلى الجحود والنكران، ولكنهم لكفرهم وخبثهم ارتابوا في أمر القرآن، واتهموه بما هو منه براء، فزعموا أنه سحر وأنه شعر وأنه أساطير الأولين، فوقعوا في التخبط ((والاضطراب لأنفسهم واتباعهم لعمى بصائرهم، وتبلد عقولهم وإلا فالحق أجلى من أن يخفى ... فكان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكين فيما قالوه غير محققين لشيء كانوا فيه)) .[1]

وهذه الريبة لا تنال القرآن بسوء، بل يرتد عليهم أثرها وتأثيرها؛ ولذا فهم من يقع في الحيرة والاضطراب، وقلق النفس، وتشتت الفؤاد، ويقودهم ذلك إلى الكفر والتكذيب فيضلون ضلالًا بعيدًا في الدنيا والآخرة، ويحرمون أنفسهم من القرآن والانتفاع به، فشكهم في القرآن وارتيابهم لن ينال الرسول - ﷺ - ولا القرآن بسوء، فهذا الشك وذلك الارتياب منهم وعليهم، فهو يحيط بهم من جميع جوانبهم، فقد تملكهم، وملأ قلوبهم، فصار ملازمًا لهم لا ينفكون عنه أبدًا، وقد جاء نظم الآية دالًّا على هذا المعنى ومؤكدًا له ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾،

(١) محاسن التأويل: ٨/ ٣٤٤.

فقد تضافرت أساليبها البلاغية التي توافرت فيها في إظهار هذا المعنى وإبرازه فقال -سبحانه- ((مؤكدا وإنهم لفي شك، أي محيط بهم منه أي: من القضاء يوم الفصل، مريب أي: موقع في الريب وهو التهمة والاضطراب بحيث لا يقدرون على التخلص من دائرته أصلًا)) .(١)

هذا هو موقفهم المشين من القرآن أن كانوا منه في شك مريب، فقد أعظموا الفرية، وضلوا ضلالًا بعيدًا، وهم مستحقون بموقفهم هذا العذاب الذي يهلكهم، ويستأصل شأفتهم، ولكن وعد الله لا يتغير ولا يتبدل؛ ولذا جاء قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، والمعنى: ((ولولا كلمة سبقت من ربك في تأخير العذاب عن المكذبين بالقرآن لقضي بينهم أي: لفرغ من عذابهم وعجل إهلاكهم، وإنهم لفي شك منه: من صدقك، مريب: موقع لهم الريبة)) (٢)، ومن هنا يتبين سر ورود قوله: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، في هذا المقام وعلاقتها بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، كما أن فيها تسلية وعزاء للنبي ـ ﷺ ـ في هذه الآيات في مقام بيان موقف المشركين من القرآن، وأنهم منه في شك مريب زورًا منهم وبهتانًا.

الموضع الرابع: قول الله تعالى:﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ

(١) نظم الدرر: ٢٠٩/١٧.

(٢) معالم التنزيل: ١٣٦/٤.

وَلَوْلَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ الشورى: ١٣- ١٤.

جاء قوله: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ في هذه الآيات في مقام تكذيب المشركين بالقرآن الكريم وبالرسول – عليه الصلاة والسلام–، وقد جاء ذلك في ختام هذه الآيات، وهو خبر وحكم من رب العالمين عليهم بذلك، وفي مجيئها في هذا الموضع الذي خُتمت به الآيات دلالة على علاقة ما تقدمها به، وكأنها نتيجة حتمية لمواقفهم من القرآن الكريم ومن الرسول –عليه الصلاة والسلام–، ومن هنا يتبين ارتباط ما قبلها بها؛ ولذا بدأت الآيات في هذا المقام بقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ فهو – سبحانه– من شرع ذلك لنا وللأمم السابقة قبلها ((إيذان بأن ما شرع لهم صادر عن كمال العلم والحكمة، كما أن بيان نسبته على المذكورين –عليهم السلام– تنبيه على كونه دينًا قديمًا أجمع عليه الرسل، والخطاب لأمته –عليه الصلاة والسلام– أي شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا ومن بعده من أرباب الشرائع، وأولي العزم من مشاهير الأنبياء)) [(١)]، ومعنى شرع لكم أي: بيّن لكم معالم الدين ووضحها لكم، وهي أصول الدين والشرائع التي لم يختلف الرسل حولها، وتوافقت عليها جميع الكتب السماوية[(٢)]، ((وهذه أكبر منة أنعم الله بها على عباده، أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها وأزكاها وأطهرها؛ دين الإسلام الذي شرعه الله للمصطفين المختارين ... وصفوة الصفوة، وهم أولو العزم من المرسلين

(١) إرشاد العقل السليم: ٢٥/٨.

(٢) انظر: فتح القدير: ٦٠٧/٤.

المذكورين في هذه الآية أعلى الخلق درجة، وأكملهم من كل وجه، فالدين الذي شرعه الله لهم، لا بد أن يكون مناسبًا لأحوالهم موافقًا لكمالهم)).[1]

وفي ذكر ذلك بطريق الموصول في قوله: (الذين) تفخيم لشأنه، وتعظيم لقدره، وكيف لا يكون عظيمًا ذا شأن وهي وصية الله التي أوصى بها جميع هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-؟! كيف لا وهي وصية جامعة مانعة، توافقت عليها الأديان كلها وأجمعت؟! فلا ينبغي الخلاف فيها والاختلاف حولها، وهي ((إقامة الدين الحق ولا تتفرقوا فيه...(أن أقيموا الدين): أي اعملوا به ...(ولا تتفرقوا فيه) يقول: ولا تختلفوا في الدين الذي أمرتم القيام به، كما اختلف الأحزاب من قبلكم ... ولا تتفرقوا فيه: تعلّموا أن الفرقة هلكة، وأن الجماعة ثقة)).[2]

بدأ بيان موقف المشركين في هذه الآيات من قوله: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ فمن هنا بدأ وينتهي عند قولهم: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، والخطاب في هذه الآيات للرسول ﷺ . وكأنه بذلك يوقفه على حقيقة قومه، ويمهد له حكمه عليهم لاحقًا بأنهم في شك مريب، فيقول: ((تعالى ذكره لنبيه محمد . صلى الله عليه وسلم . : كبر على المشركين بالله من قومك يا محمد ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لله، وإفراده بالألوهية، والبراءة مما سواه من الآلهة والأنداد)) [3]، وقد جاءت لفظة (كبر) هنا لتصور المعنى الذي قام في أنفسهم، فقد عظم عليهم ذلك وصعب، وشق عليهم غاية المشقة وعجزوا عن قبول ما تدعوهم إليه من الإيمان

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ١/٧٥٤.
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢١/٥١٣.
(٣) المصدر السابق: ٢١/٥١٣.

بالله وحده، والإخلاص له، ونبذ الأصنام، ورفض الأوثان[1]، فلا غرو -وهذه حالتهم- أن يختلفوا عليه، ويتحزبوا ضده، ويقولوا فيه الأقاويل، ويرمونه بكل اتهام، فلا عجب بعد هذا أن يكونوا في أمره في شك مريب كما سيأتي بيانه.

وأما موقفهم الثاني فقد جاء بيانه في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ فالذين ورثوا الكتاب هنا هم ((كفار المشركين من العرب الذين أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب كتابهم)) [2]، فذلك إشارة إلى معاصري النبي - صلى الله عليه وسلم- من اليهود والنصارى، أو إلى موقف مشركي العرب من القرآن الكريم .[3]

فذكر الله عن هؤلاء المشركين أنهم لفي شك مريب في أمر القرآن الكريم، وفي الرسول -عليه الصلاة والسلام- فهم لا يؤمنون بهما حق الإيمان[4]، فهذا موقفهم الثابت المعروف عنهم الذي لا يحولون عنه ولا يتغيرون؛ ولذا جاء التوكيد (بإن واللام) في بيان موقفهم للدلالة على هذا المعنى، والإشارة إليه، ولم يكن الغرض من التوكيد هنا النظر إلى حال المخاطب، فليس المخاطب منكرًا حتى يأتي الكلام له مسوقًا بأكثر من أداة من أدوات التوكيد، وإنما التوكيد فيه بالنظر إلى الخبر وما تضمنه من حقيقة مقررة، كيف وقد ذكروا ذلك عن أنفسهم في آيات أخرى أنهم في شك مريب؟! بل متلبسون بالشك غارقون فيه، بدلالة حرف

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ١/٧٥٤.

(٢) فتح القدير: ٤/٦٠٨.

(٣) انظر: المحرر الوجيز: ٥/٣٠.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب: ٢٧/٥٨٩.

الجر في، ففيها استعارة تبعية للدلالة على شدة تمكنهم من الشك وتمكن الشك من قلوبهم، فقد شملهم، وأحاط بهم إحاطة الظرف بمظروفه من كل جانب.[١]

والضمير في (منه) في قوله: ﴿ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ قد يعود إلى الدين، وقد ذكر هذا المعنى الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية، مبينًا أنهم يشكون في الدين الذي وصى الله به نوحًا، وأوحاه إلى رسوله محمد بن عبد الله ﷺ[٢]؛ ولذا ((فهم في شك وارتياب من هذا الدين الإسلامي الذي يدعون إليه؛ إذ كان دينهم الذي هو من هذا الدين قد تغيرت معالمه، وطمست وجوهه، فلما التقى بدين الله الذي يرد أصل دينهم إليه لم يجدوه ملتئمًا معه، ولا آخذًا سبيله، فكان ذلك الشك المريب منهم في دين الله)) [٣]، وقد يعود إلى النبي ﷺ - وإلى القرآن الكريم، يدل على ذلك قول الإمام الشوكاني: ((لفي شك منه أي: من القرآن، أو من محمد مريب، موقع في الريب ولذلك لم يؤمنوا)) [٤]، يدل على ذلك واقعهم ومواقفهم من القرآن الكريم ومن الذي جاء به، كما حكى الله عنهم ذلك في مواضع متعددة من القرآن الكريم، فقد كانوا ((في شك من كتابهم؛ إذ لم يؤمنوا به حق الإيمان فهم مقلدون أسلافهم بلا حجة ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم، وشك أقض مضاجعهم، وأوقعهم في اضطراب وقلق)) .[٥]

ولا تعارض بين هذه الأقوال الثلاثة فهي كلها محتملة، ومرتبط بعضها ببعض، والإيمان بواحد منها يستلزم الإيمان بها جميعًا، كما أن الشك بواحد منها يستلزم

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٢٥/٥٩.
(٢) انظر: جامع تأويل البيان عن آي القرآن: ٢١/٥١٥.
(٣) التفسير القرآني للقرآن: ١٣/٣٣.
(٤) فتح القدير: ٤/٦٠٨.
(٥) تفسير المراغي: ٢٥/٢٦.

منه كذلك الشك بها جميعًا، فهو دين الإسلام، وكتابه القرآن، ورسوله محمد – عليه الصلاة والسلام–، وهذا هو المتناغم مع موقف المشركين، ومع شدة مواقفهم العدائية، والمتناغم كذلك مع شدة العتب والإنكار عليهم.

وأما موقفهم من ذلك كله أنهم في شك مريب، وفي كونه شكًّا زرايةً بهم وبعقولهم وبمواقفهم من الدين ومن الرسول ـ ﷺ ـ ومن القرآن الكريم، فهو لا يعدو أن يكون شكًّا: دلالة على ضعف مواقفهم، وقلة حيلتهم، فقد جاءت لفظة (الشك) هنا لتدل على أنهم ((ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم وشك مريب وشقاق بعيد)) .[1]

وفي الإخبار عن موقف المشركين بالشك دلالة على ضعفه وضعفهم، فلا يثبت أمام الحقائق، ويضعف عن المواجهة والمجابهة؛ وذلك ((أن مبلغ كفرهم وعنادهم لا يتجاوز حالة الشك في صدق الرسالة المحمدية؛ أي ليسوا مع ذلك بموقنين بأن الإسلام باطل، لكنهم ترددوا، ثم أقدموا على التكذيب به، حسدًا وعنادًا، فمنهم من بقي حاله في الشك ومنهم من أيقن بأن الإسلام حق)) [2]؛ ولذا جاء وصف شكهم بالمريب خبثًا منهم؛ ظنًّا منهم أن ذلك سيقوي موقفهم، وينقلهم من الشك إلى اليقين، يظنون أنهم بذلك جازمون بمواقفهم من القرآن الكريم، فقد تجاوزوا الشك إلى اليقين بحقيقة أمره، والارتياب فيه؛ ولذا فالقرآن في نظرهم شعر وسحر وأساطير الأولين، وكذلك الرسول –عليه الصلاة والسلام– فهو ساحر وشاعر، فقد تجاوزوا الشك إلى الاتهام الباطل والاعتقاد الفاسد، وفي وصف الشك بالمريب مبالغة منهم وخبث ودهاء[3] في كونه يوقع من يؤمن به في الحيرة

(١) تفسير القرآن العظيم: ١٧٩/٧.

(٢) التحرير والتنوير: ٥٨/٢٥.

(٣) انظر: المحرر الوجيز: ٣٠/٥.

والقلق والاضطراب؛ ولذا فهم لا يؤمنون به، ويأمرون أتباعهم بالكفر به؛ لكثرة ما يبثونه في نفوسهم من الشكوك والأوهام من الوساوس الصادة عن سبيل الله[1]،وكأن ارتيابهم فيه جاء نتيجة لكثرة شكهم فيه، والمعنى أنهم ((لفي شك يفضي إلى الظنة والتهمة؛ أي شك مشوب بتكذيب، فمريب: اسم فاعل من أراب الذي همزته للتعدية؛ أي جاعل الريب)).[2]

هذا هو موقف المشركين المخزي الذي حكاه الله عنهم في هذه الآيات، فذكر عنهم أنهم لفي شك مريب، وقد ذكر الله عنهم ذلك في سياق الذم والسوء؛ ولذا وتتمة لبيان موقفهم المشين فقد أقام عليهم -سبحانه- الحجة، وبين زيف دعواهم، ونقض شكهم المريب عروة عروة كما في هذه الآيات؛ ولذا فإن لقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ علاقة وطيدة في الرد على موقف المشركين في كونهم في شك مريب من الرسول -عليه الصلاة والسلام-، فهو -سبحانه- من يجتبي من رسله من يشاء، فهو أعلم بحكمته حيث يجعل رسالته، فهو -سبحانه- من يجتبي وهو من يصطفي من الرسل، وعليكم الإيمان والاتباع لا الشك فيه ولا الارتياب، ولعل هذا هو سر تقديم لفظ الجلالة على الخبر الفعلي في قوله: ﴿ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ ﴾ وقد أفاد هذا التقديم القصر، وله دلالاته وأسراره في هذا المقام؛ إذ تضمن هذا القصر((ردًّا على المشركين الذين أحالوا رسالة بشر من عند الله، وحين أكبروا أن يكون الضعفة من المؤمنين خيرًا منهم)).[3]

وكما أنه – سبحانه – يجتبي من يشاء فكذلك الهداية بيده يمنّ بها على من يشاء من عباده؛ ولذلك جاء قوله: ﴿ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ دلالة على هذا

(١) انظر: محاسن التأويل: ٣٥٩/٨، وتفسير أبي السعود: ٢٧/٨.

(٢) التحرير والتنوير: ٥٩/٢٥.

(٣) المصدر السابق: ٥٥/٢٥.

المعنى وإشارة إليه، فهو -سبحانه- ((الذي يقدّر الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد)) [1]، فهو -سبحانه- من كتب ضلالتهم وقدرها عليهم؛ ولذا حكم عليهم بأنهم في شك مريب.

وقبل أن يضلهم ويكتب عليهم الشقاء والضلال، وقبل أن يذكر عنهم أنهم في شك مريب قبل هذا كله أقام عليهم الحجة، وأعطاهم الدلائل والمنائر التي بها يبصرون ويهتدون، فجاء قوله في هذا السياق:﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ تقريرًا وتأكيدًا، والمعنى كما يذكر ابن كثير أي ((فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم؛ أي: إنما كانت مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد والمشقة)) [2]، وفي قوله: (بغيًا) دلالة على السبب الحقيقي في كونهم في شك مريب، وهو الحسد والعداوة والبغضاء، وبغيهم بطلب الرئاسة، والأنفة والحمية التي تملأ قلوبهم بأن يكون محمد رسولًا أرسله الله إليهم.[3]

وقد جاء قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ قبل بيان موقف المشركين، وقبل أن يذكر عنهم أنهم في شك مريب، وفي هذا دلالة أنهم أوجبوا على أنفسهم العذاب، وأنهم مستحقون للهلاك بسبب شكهم وارتيابهم في القرآن الكريم، وفي الرسول -عليه الصلاة والسلام-، فجاء قوله: ﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ تأكيدًا لذلك وتقريرًا، ولكن بذلك قضى الله وحكم أن يؤخر عقابهم وألا يهلكهم في الدنيا

(١) تفسير القرآن العظيم: ١٧٨/٧.

(٢) المصدر السابق: ١٧٩/٧.

(٣) انظر: فتح القدير: ٦٠٧/٤.

جميعًا، ولولا هذه ﴿ الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل عليهم العقوبة في الدنيا سريعًا﴾ [1]، نظير كونهم في شك مريب من القرآن الكريم ومن الرسول ﷺ . وفي ذلك دلالة على شدة ما اقترفوه، وعظيم جرمهم، فحق القرآن الإيمان به، والإقبال عليه، لا الكفر به والإعراض عنه، كما أنه يبدد دياجير الظلام، ويقتلع جذور الشك، فكيف يكونون منه في شك مريب؟!

(١) تفسير القرآن العظيم: ١٧٩/٧.

خاتمة البحث

فهاهي خاتمة البحث، ونهاية المطاف مع هذه الصحبة العلمية لمقامات (في شك مريب)، وقد قمتُ بحصر مواضع هذه المقامات، وحصر آياتها وتصنيفها، ودرستها دراسة بلاغية في ضوء النظم الذي جاءت به، فنظرتُ في أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية، وبينت المراد بالشك المريب في بيان موقف المشركين من القرآن الكريم، ومن الرسول الأمين ـ ﷺ ـ وذكرتُ كذلك أسباب هذا الموقف، وتهافته وبطلانه، وربطت ذلك كله بالمقام الذي وردت فيه تلك الآيات، فقد كان المقام خير معين؛ لمعرفة مواقفهم، ودوافعهم، وخرجت من هذا البحث بكثير من النتائج العلمية ولله الحمد، ومن أهمها ما يأتي:

أولًا: ورد تركيب (في شك مريب) في خمس سور من القرآن الكريم، وهذه السور هي – كما هي في المصحف –: هود في موضعين، إبراهيم، سبأ، فصلت، الشورى، وجميع هذه السورة مكية، ولهذا الأمر دلالته عند النظر في المقامات التي وردت فيها، فقد جاء الشك المريب لبيان حال كفار قريش مع الرسول ـ ﷺ ـ ولبيان مواقفهم من القرآن الكريم، وهذا هو موقفهم الذي ذكروه عن أنفسهم، وهو ما حكاه الله عنهم، فيكاد يكون الرسول –عليه الصلاة والسلام – وكذلك القرآن الكريم من أكثر الموضوعات التي طال فيها نقاش المشركين وجدالهم، وظهر فيها كفرهم وعنادهم، فكان موقفهم من ذلك الشك المريب؛ ولذا أخذت هذه الآيات الخصائص الموضوعية والأسلوبية للآيات المكية.

ثانيًا: تعدد الموضوعات التي جاءت فيها (في شك مريب)، وتنوع من صدر منهم ذلك، فقد جاءت في مقامات متعددة على امتداد نزول القرآن، في العهد المكي؛ ولذا أخذت هذه الآيات الخصائص الموضوعية والأسلوبية للآيات المكية، فكان في هذا التعدد كثير من التميز والتفرد لهذه الآيات.

ثالثًا: عند النظر في مقامات (في شك مريب) وحصرها، وجدتها أنها تعود إلى مقامين:

المقام الأول: مقام تكذيب الأمم السابقة لأنبيائها ورد دعوتهم، في موضعين من القرآن الكريم.

المقام الثاني: مقام تكذيب كفار قريش للرسول -عليه الصلاة والسلام-، وقد جاء ذلك في أربعة مواضع من القرآن.

رابعًا: في وصف الشك بالمريب دلالة على مفارقة كل لفظة للأخرى في الدلالة، وفي المقام الذي تأتي فيه، وفي الغرض المراد تحقيقه وتقريره؛ وذلك أن الشيء لا يوصف بنفسه، ولا يعطف على معناه نفسه، وهذا ما يؤكد أنهما لفظتان مختلفتان في الدلالة والمعنى، وأنهما ليستا مترادفتين، وذلك يؤكد خلو الترادف في ألفاظ القرآن الكريم، فلكل لفظة معنى دقيق يخصها دون غيرها، يظهر ذلك عند التدقيق والتمحيص.

خامسًا: تنوع ورود (في شك مريب) في هذه المقامات، فحينًا تأتي إخبارًا من المشركين عن أنفسهم؛ بيانًا منهم لمواقفهم من الرسول -عليه الصلاة والسلام- ومن القرآن الكريم، وأنهم في شك مريب مما يدعونهم إليه؛ دلالة على شدة تماديهم وافترائهم، وحينًا تأتي إخبارًا من الله -عز وجل- عنهم، وأنهم في شك مريب دلالة على أن الله -سبحانه وتعالى- عاقبهم بعدم فهم القرآن، والانتفاع منه بأن جعلهم في شك مريب.

سادسًا: جاء تركيب في شك مريب في جميع المقامات بقولهم: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ فكان التوكيد والتنكير والاستعارة حاضرة في كل هذه المقامات، وقد جاءت هذه الأساليب بناء على المقام الذي وردت فيه، فكانت بليغة في مقامها، معبرة كل التعبير عن مدى هذا الشك المريب الذي ملأ قلوبهم، فقد

تجاوزوا الشك إلى الارتياب والاتهام، فمن المناسب وهذه حالتهم حشد كثير من المعاني البلاغية والأساليب البيانية في رد هذا الشك المريب واقتلاعه من أساسه.

سابعًا: جاء قوله ـ تعالى ـ :﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ في أغلب مواضع الإخبار عن المشركين في أنهم في شك مريب، والمراد بتلك الكلمة أن الله لن يعجل عذابهم في الدنيا، ولن يستأصل شأفتهم بعذاب يعمهم جميعًا، ولولا تلك الكلمة لأهلكهم الله على بكرة أبيهم؛ دلالة على أنهم استحقوا العذاب، وأوجبوه على أنفسهم، جزاء مواقفهم في كونهم في شك مريب.

ثامنًا: ناسب أن يكون هذا الموضع ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾ آخر شواهد الدراسة، وأن يكون كذلك آخر المواضع في ترتيبها في المصحف، وهي إخبار من الله، وحكم عليهم بأنهم في شك مريب، وقد اختص هذا الموضوع ببيان أسباب هذا الشك المريب، وبإقامة الحجة عليهم، حكمة بالغة فما تغني النذر.

وأوصي في خاتمة هذه الدراسة بالتفات الباحثين والدارسين إلى مزيد من الدراسات القرآنية التطبيقية التي تعنى بالمقام، ودراسته في ضوء التراكيب التي تتكرر في القرآن الكريم، وهي كثيرة، يدركها من كان له من القرآن الكريم مزيد تأمل ونظر، فلهذه التراكيب في النظم القرآني أسرارها البلاغية المرتبطة بمقامها، وبالغرض الذي سيقت له، وبحال المخاطبين بها.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

ثبت المصادر والمراجع

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د . ت).

٢. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٣. الإيضاح، للخطيب القزويني، دار إحياء الكتب الإسلامية، بيروت، (د . ت).

٤. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٥. البيان والتبين، لأبي عثمان الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الخامسة: ١٤٠٥هـ.

٦. التحرير والتنوير تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس: ١٩٨٤م.

٧. تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين ابن كثير، قدم له: عبد القادر الأرناؤوط، دار السلام، الرياض، ط: الأولى: ١٤١٣هـ.

٨. التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة.

٩. تفسير المراغي، لأحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى: ١٣٦٥هـ، ١٩٤٦م.

١٠. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تقديم: محمد النجار، تصحيح: محمد البسام، دار المدني، جدة، ١٤٠٨هـ.

١١. جامع البيان عن تأويل آي البيان، لابن جرير الطبري، تحقيق:د. عبد الله التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١٢. ديوان الحطيئة، برواية وشرح ابن السكيت، تحقيق نعمان محمد أمين طه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الأولى ١٤٠٧ هـ .

١٣. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ.

١٤. الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، ضبطه وحققه: حسام الدين القدسي، دار زاهد القدسي.

١٥. القاموس المحيط، للفيروزأبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الثانية: ١٤٠٧هـ.

١٦. كتاب الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثالثة، ١٣٨٨هـ.

١٧. كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، ط: الثانية.

١٨. الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٢هـ.

١٩. لسان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثالثة: ١٤١٣هـ.

٢٠. مجمع الأمثال، للميداني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ١٤١٦هـ.

٢١. محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين بن قاسم القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ.
٢٢. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤١٣هـ.
٢٣. مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧م.
٢٤. المطول في شرح تلخيص المفتاح، لسعد الدين التفتازاني، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٣٣٠هـ.
٢٥. معالم التنزيل في تفسير القرآن، لمحيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه: محمد بن عبد الله النمر، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ.
٢٦. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٧هـ.
٢٧. معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسن بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط: الأولى: ١٤١١هـ.
٢٨. مفاتيح الغيب: التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٢٠هـ.
٢٩. مفتاح العلوم، لأبي يعقوب السكاكي، المكتبة العلمية الجديدة، بيروت.
٣٠. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط: الثانية: ١٤١٣هـ.